العــراق الحــديث

بين الثوابت والمتغـيرات

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



٩ شارع السعادة- أبراج عثمان- روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٩-٤٥٠١٢٢٨ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: shoroukintl@hotmail.com

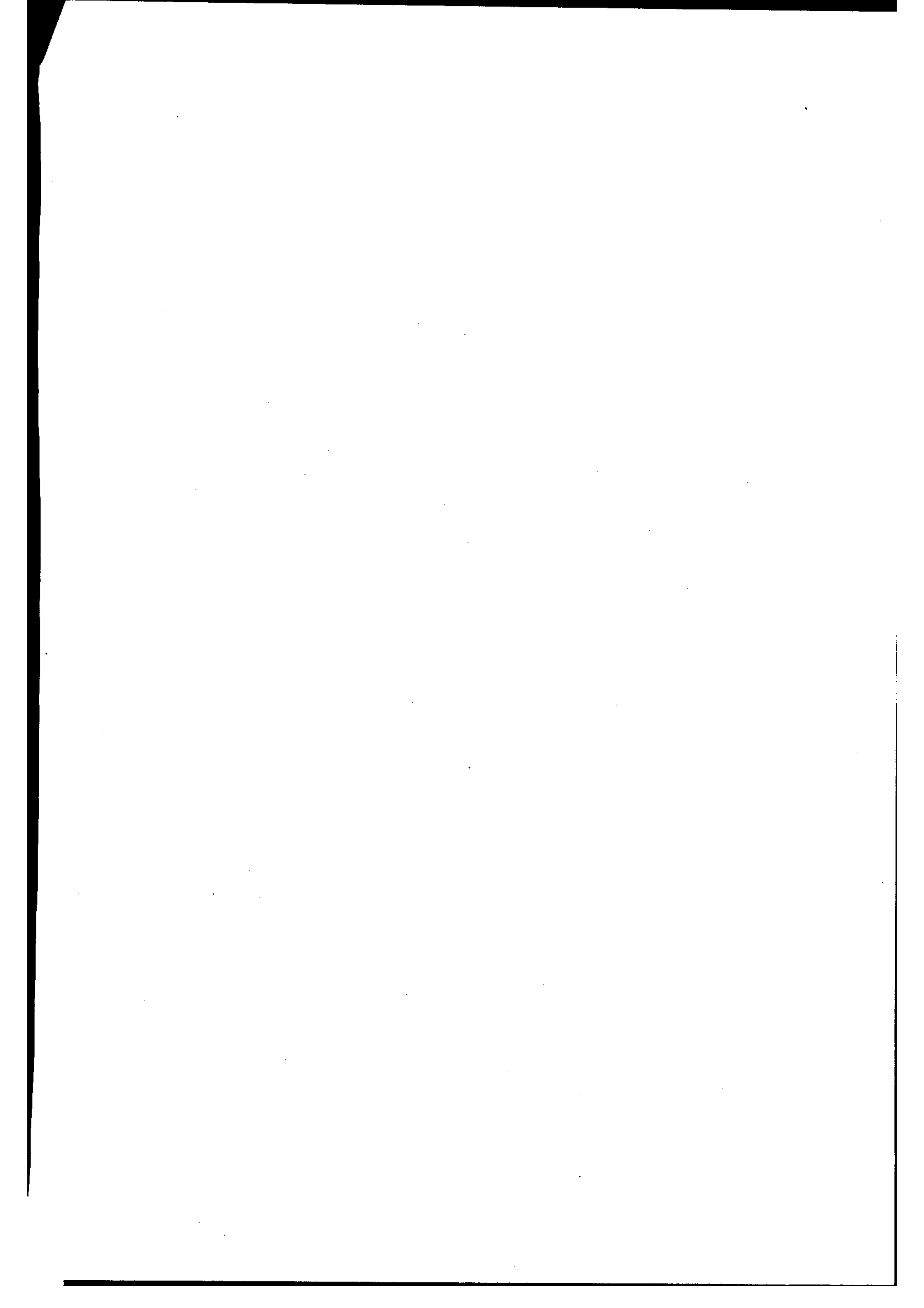
shoroukintl@yahoo.com

العراق الحديث

بين الثوابت والمتغيرات

د. طه جابر العلوانى





المحتويات

المقدمة:[*] ضرورة التجديد

يعد تحديد الثوابت والمتغيّرات[1] فى حياة الشعوب والأمم ضرورة لا بد منها، إذ لو بقيت الثوابت والمتغيّرات - معًا - فى حالة سيولة وتداخل واختلاط فإنّ من المتعذر تحديد أهداف وبناء استراتيجيّات، وتخطيط حاضر أو مستقبل أو فهم لماضٍ. وجلّ عمليات التزوير الكبرى التى يتعرض لها تاريخ الشعوب، وسير الأمم تستهدف فى مقدمة ما تستهدف إزالة الفواصل بين الثابت والمتغيِّر من مكوناتها، وخلط الأوراق بحيث تتعذَر الرؤية السليمة

(*) هذه خلاصة محاضرة قدمت خطوطها العامة فى (مسجد السلام) فى ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٣م. ثم قدمت فى محاضرة أخرى، ومن زاوية مغايرة فى اجتماع ضم نخبة من العراقيين فى أمريكا شارك فيها أساتذة وقيادات ورجال أعمال جمعهم الهم العراقى، ومثلوا أهم ألوان الطيف العراقى فى أمريكا للبحث فيما يمكن للمشاركين أن يقدموه لوطنهم الحبيب ولشعبهم العراقى العزيز.

(١) الثابت: ضد المتغير، فكل ما لا تتغير حقيقته بتغير الزمان ثابت، ويطلق - أيضًا - على الأمور التى لا تزول بتشكيك المشكك. كما تطلق على المستقر، ولعل المراد بقوله تعالى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم: ٢٧] هو القول الصحيح المستقر الذى لا يزول أو يتزحزح بالتشكيك. راجع: المعجم الفلسفى، لجميل صليبا ١/ ٣٧٣ وهو فى معنى الجوهر فالأشياء نوعان جواهر وأعراض: فالجواهر هى الأشياء القائمة بنفسها. والأعراض هى ما لا يقوم إلا بغيره، فهى حالة فى الجواهر. راجع: مصطلحات الفلسفة عند العرب، چيرار چهامى، مادة جواهر، ص ٢١٠، وأما المتغير فهو القابل للتغير، أو ما يمكن تغيره وتغييره. أو ما ينزع إلى التغير، والتغير هو الانتقال من حالة إلى أخرى. راجع: المعجم الفلسفى ٢/ ٣٣٠.

والفهم المستقيم، فتنعدم - آنذاك - القدرة على البناء والتدبير اللذين يحتاجان إلى طاقات الأمة كلها.

فلا غرابة - والأمر كذلك - أن تجرى بين الحين والحين عمليات تزوير لتاريخ أمم وشعوب، وإعدام لذاكرتها التاريخيَّة أو تخريب لها؛ لئلا تتمكن من النهوض إذا ما كبت أو تعثرت. ولذلك فإنّ عمليّات تصحيح التاريخ وتنقيته، وإعادة الوعى الصادق على ثوابت ذلك الشعب أو تلك الأمة ومتغيراتها تعد من أوليّات العمل الفكرىّ الجاد البنَّاء، ومن ضروريّات إعادة تشكيل الوعى الصادق(١) من جديد.

إنّ القرآن المجيد قد قدم لنا نماذج رائعة فى عمليَّات التصحيح التاريخى. فقد استرجع تاريخ الأنبياء وتراثهم، وقام بمراجعته ونقده، وتنقيته مما أصابه من تحريف أو تغيير أو إضافة أو حذف ليعيده صادقًا كما بدأ، قائمًا على الصدق والحقيقة والكلمة الإلهية فقط. واضح المعالم، بيّن القسمات، تتميز فيه ثوابت الأنبياء والرسل وثوابت رسالاتهم عن المتغيّرات، وتتميز فيه السنن الثابتة عن القوانين المتغيَّرة، ومميزات الأمم وخصائصها الثابتة والمتغيَّرة(٢)؛ لكى تتمكن من ممارسة فعل النهوض واستعادة الدور.

---

(١) وصف الوعى بالصدق والكذب مستفاد من وصف "الفجر" بهما، فهناك الفجر الكاذب وهو ضوء يسبق طلوع الفجر، وهو مقدمة له قد يتوهم البعض أنه الفجر الصادق، وليس به، وهناك الفجر الصادق - أى الحقيقى - الذى يعقبه ضياء النهار لا الظلام.

(٢) لقد استرجع القرآن المجيد تاريخ البشرية من القرار الإلهى بل من العهد الإلهى الذى أخذه الله من بنى آدم عند خلق آدم واستخلافه مروراً بتاريخ الخلق والتكوين، ودخول الجنة والخروج منها. ثم ما أعقب ذلك من التجربة الإبراهيمية والإسرائيلية، وقبلها تجربة نوح وغيرهم من الأنبياء وصولاً إلى نبوة محمد ﷺ وما جرى له مع قومه حتى اكتمال الدين وإتمامه وتوقف الوحى وتمام القرآن قبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

ونحن إذ نستهدى بهدى القرآن الكريم فى موضوع التخطيط لإعادة بناء "العراق الحديث" لنرجو أن نوفق إلى توضيح الصورة التى شابها من العبث والخلط، والتزييف المقصود وغيره ما يجعل الأمر - أمر التمييز بين الثابت والمتغيِّر- فى غاية الصعوبة. ونحن لا ندعى أنّنا سنحدد ذلك بالدقة المطلوبة، بل حسبنا أن نحاول ونفتح طريق البحث والتفكير الجاد أمام الباحثين الجادين لاستكمال ما بدأناه. فإنّ الضغوط كثيرة، وتلاحق الأحداث قد لا يتيح فرصة للتفكير العميق فى هذا الموضوع أو الانشغال الجدِّىِّ فيه. أو إعطائه ما يقتضيه من الوسائل والأدوات المنهاجيَّة والبحثيَّة. وعلى هذا فإنّ ما نقدمه إن هو إلا جهد المقل، أخذًا بقاعدة "إنَّ الميسور لا يسقط بالمعسور" و"أنّ ما لا يدرك كله لا يترك جلّه".

والأسئلة التى تحاول هذه الرسالة الإجابة عنها هى:

١- هل هناك ثوابت ومتغيرات فى الواقع العراقى الراهن، أو أن زلزال الاحتلال لم يبق شيئًا ثابتًا يمكن للعراقيين كافة أن يلتفوا حوله؟

٢- هل يمكن تحديد هذه الثوابت ورصدها فى خضم هذه الفوضى الفكرية والسياسية والعسكرية والاجتماعية وما إليها؟ خاصة بعد تلك المحاولات السابقة والراهنة لتزوير تاريخ العراق والتلاعب به، والمحاولات المستمرة لتخريب ذاكرته أم أن ذلك قد أصبح بعيد المنال؟

٣- كيف أعاد القرآن المجيد إنتاج تاريخ البشرية والنبوات والرسالات التى جاءتها؟ كيف تمكن من وضعه فى حالة الصدق، وتطهيره من سائر عمليات التزوير كلية كانت أو جزئية؟ وهل تمكن الاستفادة بهذا المنهج القرآنى فى إعادة كتابة تاريخ العراق، وتنقية هذا التاريخ من سائر ما أضيف إليه أو حذف منه، أو حرِّف فيه؟

٤- وإذا أوصل البحث إلى أن هناك ثوابت عراقية، فهل يمكن دعم هذه النتيجة، والاستدلال لها، وإثباتها أولاً؟

٥- وإذا تبين أن هناك ثوابت عراقية، ووقع نوع من الاتفاق الوطنى عليها أو على بعضها، وأقيمت الأدلة على وجودها، فما هذه الثوابت التى سنوردها فى هذه الرسالة؟ وكيف يمكن أن تجتمع الكلمة عليها؟

٦- هناك من يشكك فى "عربية العراق" واعتبارها صفة أساسية وثابتًا من الثوابت العراقية، فكيف يمكن دحض هذه الشبهة؟ وإزالة مصادر التشكيك فى عربية العراق، وإعادتها إلى موقعها السليم بين الثوابت العراقية قبل وقوع الفرقة والاختلاف؟

٧- هناك من يرى أن الخلاف بين السنة والشيعة خلاف متجذر وراسخ، وأنه خلاف دينى، عقيدى، مذهبى، وإثنى كذلك. ما نصيب هذا التصور من الحقيقة؟ وكيف يمكن توضيح هشاشة الاختلاف، وتوكيد أنه لا يتجاوز الفروع إلى الأصول، وأنه لا يختلف فى حجمه ومستواه عن اختلافات الرأى والمذاهب الفرعية داخل المذهب الواحد؟

٨- يرى البعض أن العراق بلد قابل للقسمة بطبيعة جغرافيته البشرية، وجغرافيته الطبيعية، ما نصيب هذا التصور من الصحة؟ وكيف نثبت خطأ هذا الرأى وخطله، ونبين أن العراق غير قابل لذلك؟ ولو أن هذا المنطق مقبول لما بقى قطر على وجه الأرض موحدًا، حيث لا يوجد قطر واحد مهما صغر لا تختلف طبيعة مناطقه، ولم يتداخل فى جغرافيته السكانية مع شعوب أخرى؟

٩- كيف يمكن تعالى الجميع على جراحات الماضى، وإعادة حالة الصفاء والإخاء بين السنة والشيعة، ثم بين العرب والأكراد، وتوسيع دوائر المشتركات، وتضييق دوائر الخلافات ووضعها فى حجم طبيعى لا يسمح بتحويل ذلك إلى قنابل موقوتة يمكن الكشف عنها وتفجيرها ساعة يشاء أعداء البلاد؟

١٠- كيف يمكن إعادة بناء صلات القربى ووشائج الإخاء بين العرب والأكراد، وجمع كلمتهم على الأهداف المشتركة بين العراقيين، وكذلك الحال بالنسبة للتركمان، وسائر المجموعات الأخرى ليتحول هذا التنوع والتعدد إلى ميزة للمجتمع العراقى؟ وإمكانيته؟ لا إلى عبء وسلبيات؟

ولعل هذا الكتيب - على لطافة حجمه - قد أجاب عن بعض هذه الأسئلة بشكل وجيز يغنى اللبيب -إن شاء الله- ويفتح للحوار المشترك الذى لا يخاف سالكه دركًا ولا يخشى.

***

الثوابت العراقيَّة

بادئ ذى بدء أود أن أدعى بأنّ الثوابت العراقية الأساسية الكبرى هى :

الثابت الأول: "عربيَّة العراق"

الثابت الثانى: "إسلاميَّة العراق فى الفتح الإسلامى"

الثابت الثالث: "التنوُّع العراقى" فى الأديان والمذاهب والأعراق واللغات وطبيعة الأرض.

الثابت الرابع: "ضرورة توفير كل أسباب التداخل بين أبناء الشعب"

الثابت الخامس: "الوحدة الوطنية"

وهذه الثوابت الكبرى لا يمكن تجاهل أىّ منها، ولا التقليل من شأنها مهما كانت الظروف. وكل تجاهل لها أو لأىّ منها كلا أو جزءًا يحدث خللاً كبيرًا، ويكون مصدر انعدام توازن فى "هوية العراق" وفى "مقوِّمات الشخصيَّة العراقيَّة". وإذا اختل التوازن فى الشخصية والهوية أو فى إحداهما، استحالت إقامة كيان متماسك يستطيع توفير مقومات مجتمع، أو مكونات دولة، أو شروط استقرار. وفى هذا العرض الوجيز سنفصل القول فى هذه الثوابت؛ لتحصل القناعة لدى الجميع بأنها ثوابت، ولعله يقع الإجماع أو الاتفاق على إبقاء هذه الثوابت بعيدة عن المساومات السياسية والصراعات الحزبية والطائفية فى الحاضر وفى المستقبل، بحيث تبقى القضايا السياسية قابلة للتفاهم وممكنة المعالجة.

الثابت الأول

عربية العراق(١)

يخطئ من يظن أنّ "عربية العراق" صفة طارئة، أو أنها مجرد لون أو ثوب مستعار يستطيع العراقيون أن يرتدوه، أو يخلعوه متى شاءوا؛ لأنّها صفة أو صبغة طرأت عليه - بحسب ظن هؤلاء المخطئين - بعد الفتح الإسلاميّ أو بعد بروز عصر القوميات؛ فالتاريخ يخبرنا أنّ الهجرات العربيّة من جزيرة العرب إلى العراق بعمقه، قد بدأت قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - ببضعة آلاف من السنين. وكانت الهجرة الثانية ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وهؤلاء العرب الذين استقر بهم المقام فى أعماق العراق هم الذين شادوا أعظم الحضارات فى "العهد الأكدىّ" ثم "البابلىّ" ثم "الآشورى". وتعد الهجرات التى سبقت

(١) لا يحمل القول بهذا الثابت أى دعم لعنصرية أو تعصب من بعض الفئات للعرب أو لأية قومية. إذ إن هذه المشاعر السلبية نشأت بعد عصر القوميات، ثم ظهور الدول القومية، وإثارة مشاعر الانفصال والتمايز أو الأفضلية لقوم على آخرين، فنحن هنا لا نريد به أكثر من تقرير حقيقة واقعة، كمن يحمل اسمًا ولا يمكن ولا يحق لمن حمل اسمًا ما أن يجعل من مجرد حمله لذلك الاسم ميزة يستحق بها أن يتعالى على الآخرين، فإذا كانت عربية العراق على مستوى الواقع التاريخى والمعاصر ثابتًا من ثوابته فإن وجود الأكراد التاريخى والحاضر واقع كذلك. وكذلك بالنسبة للأعراق الأخرى، ولذلك فإننى أؤكد أن لا يؤخذ هذا الأمر مأخذًا غير ملائم، وألا يساء فهمه وعربية العربى مسئولية أكثر منها ميزة فليفهم ذلك.

الفتح الإسلامى بقليل أو صحبته، أو جاءت بعده بقليل هى الهجرات العربيّة الأخيرة. حيث انتشر الإسلام فى كل أرجاء العراق، وتم تجديد اللغة العربية فيه وفقًا لما برزت عليه عند نزول القرآن الكريم، واتضح أثر القرآن المجيد فى تطوير اللسان العربىّ، مما كان له أكبر الأثر - بعد ذلك - فى نشأة مدرستى الكوفة والبصرة النحويتين فيما بعد، إضافة إلى وجود "مدرسة الكتاتيب العربية" فى الكوفة والحيرة قبل الإسلام (١).

لذلك فإنّ "عربية العراق" ما كانت ولم تكن قضية طارئة أو صفة عرضيّة لاحقة. فهى صفة لازمة وجوهرية. وعربيّة العراق لا تعنى ولا تسمح ولا تتسع بأى حال لأىّ مضمون عرقىّ أو عنصرىّ، بل هى مضمون فكرىّ ثقافىّ حضارىّ يشتمل عليه لسان خالد خلّده القرآن المجيد، وسيبقى القرآن واللسان العربى وعربيّة أهل ذلك اللسان أمورًا متلازمة لا تنفك ولا تنفصل حتى يوم الدين.

ولم يفقد العراق عربيّته، ولم ينسلخ منها لا فى حرب ولا سلم، ولا فى حالات السيادة والاستقلال ولا فى حالات الغزو والاحتلال.

فعندما سقطت بابل تحت حكم الفرس وأصبحت بلاد بابل وآشور - أى العراق - جزءًا من الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وهيمنت الدولة الساسانية على تلك الإمبراطورية كانت بلاد الرافدين قسمًا مهمًا منها بجذورها وثقافتها ولغتها. ولقد شاد الساسانيُّون عاصمة ملكهم الشتويَّة فى المدائن التى كانت تسمى (توسفون)(٢) وتقع قريبًا من بغداد العاصمة الحالية للعراق وتسمى

---

(١) راجع "تاريخ العرب القديم" نبيل عاقل، ص ٢٠٢، ط٣، ١٩٨٣م

(٢) توسفون: وتسميها بعض المصادر "طيسفون" عاصمة سابور ذى الأكتاف الفارسى، وهى إحدى المدن التى تتألف منها "المدائن"، وقد اختلف فيمن أسسها وبناها من =

حاليًا بـ "سلمان باك" نسبة إلى الصحابى الجليل سلمان الفارسىّ الذى له مسجد وضريح يزار هناك. وكانت منطقة "الحيرة"[1] فى الجنوب - آنذاك - يقطنها نصارى عرب هم بنو تنوخ، وعرف ملوكهم بـ "اللخميين"[2] وكانوا يدينون بالطاعة لملوك الفرس وسيطرتهم، ومن أشهر ملوكهم النعمان صاحب قصر الخورنق (٤٠٠م) والمنذر الثالث (٥٠٠-٥٥٤) والذى عُرف لدى العرب باسم (ماء السماء) وولده عمرو بن هند وولد النعمان الثالث (٥٨٠-٦٠٢) وأشعر شعراء بلاطه كان الشاعر العربى المشهور النابغة الذبيانى[3] تلك كانت حالة العراق بصورة عامة. أثناء الهيمنة الفارسية الساسانية: لم يفقد

= ملوك الساسانيين، وسقطت بأيدى المسلمين فى الفتوح الأولى، وقد ذكرها ياقوت الحموى فى معجم البلدان وهى تعرف "بالمدائن" ٧/ ٤١٣-٤١٤، وانظر أيضًا: جواد على "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" ٢/ ٦٣٥.

(١) الحيرة: مدينة كانت على بعد ثلاثة أميال من الكوفة، يرى ياقوت الحموى أنها كانت على موضع يقال له النجف حاليًا، وقد زعموا أن بحر فارس كان يتصل به وبالحيرة وبالقرب منها مما يلى الشرق على نحو ميل، وقد كانت الحيرة مسكن ملوك العرب فى الجاهلية فى زمن نصر ثم زمن لخم بن النعمان وآبائه.

(٢) اللخميون: نسبة إلى عمرو بن عدى بن نصر اللخمى فى الجاهلية، وهو حى كان يسكنه ملوك العرب فى الجاهلية، وملوك لخم كانوا قد نزلوا الحيرة وهم آل المنذر، والنسبة إلى ذلك لخمى. واللخم فى اللغة هو اللطم، والإنسان ثقيل النفس. راجع تاج العروس، باب الميم فصل اللام، وكذلك محيط المحيط ص ٨١٢.

(٣) النابغة الذبيانى (نحو ١٨ ق هـ - ٦٠٤ م) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارهم، وهو أحد الأشراف فى الجاهلية وكان المفضل عند النعمان بن المنذر، حتى شبب فى قصيدة له بالمتجردة "زوجة النعمان" فغضب عليه، ففر النابغة إلى الغسانيين بالشام، وغاب زمنًا، ثم رضى عنه النعمان فعاد إليه.

العراق لغته العربية ولا هُويَّته حتى فى ظل احتلال مستمر كالاحتلال الفارسىّ الطويل(١).

وحدة العراق فرع عن عربيَّته:

أما عن "وحدة العراق" وتماسك أرضه وشعبه فإنّ التاريخ يُكذب الأصوات التى تعالت منذ تحرير الكويت وتحديد المناطق المحمية وازداد ضجيجها بعد سقوط "العصابة الحاكمة للعراق" بقيادة صدام: أن العراق -بجدودية الحالية - هو تركيب طارئ من مجموعة ولايات عثمانيّة تم تجميعها ودمجها وتوحيدها قسراً بجهود المستعمر البريطانى؛ لأن ذلك التجميع كان فى صالحه أو محققًا لمآربه، وعلى ذلك فالعراق بحدوده الحالية عراق مفتعل ومصنوع، و "وحدته الوطنيّة" القائمة بين هذه الولايات طارئة مفتعلة، ومن هنا فإن تفكيكها وتقسيمها على القوميّات والطوائف بمساعدة المحتل أو المحرّر الجديد يصبح أمراً مشروعًا ومقبولاً، بل قد يعتبره البعض عودة إلى الأصل الذى كان، أو قد يكون من المفيد أن يشجع البعض عليه، وتنطلق الدعوات إليه، وقد يعتبر السيد الجديد (المحتل) متفضلاً باقتراحه وتنفيذه. والحق أنَّ هذا خطأ معرفىّ فاحش فى التاريخ والجغرافيا والسياسة والدين، وخطأ فى حق

---

(١) حكم الساسانيون بلاد الرافدين طيلة الحقبة التى بدأت باستيلاء "أردشير" على الحكم منتزعًا العرش من الفرثيين وحتى تحرير العراق على يد جيوش العرب المسلمة، واعتبر ذلك إعادة طبيعية للعراق إلى أحضان شبه الجزيرة العربية، وقد كان احتلال "أردشير" لبلاد الرافدين قد بدأ عام ٢٢٤ م. راجع: المجمع العلمى العراقى، العراق فى التاريخ، بغداد، دار الحرية، ١٩٨٣م، ص ٢٥٩-٢٦٢ . ويذهب "جواد على" صاحب "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" إلى أن صلة العرب الفعلية بالعراق بدأت فى عهد الملك "ترام سن ٢٢٧٠-٢٢٢٣ ق. م" وأنه قد استولى على الأرض المتصلة ببلاد بابل، ويرجح "جواد على" أن هذا أقدم خبر تاريخى يحدد صلة العرب بالعراق. راجع "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" ١/ ٥٧٣.

العراق وشعبه بكل فصائله، وذلك أنّ ما عرف تاريخيّا باسم العراق كان أوسع بكثير من حدود عراق ما قبل (١٩٥٨م) وما قبل ثورة العشرين؛ فالعراق تاريخيّا كان يطلق على منطقتين واسعتين: منطقة "بلاد ما بين النهرين" ومنطقة الجبال الشمالية، وقد أسس الأكديُّون ذوو الجذور العربيّة دولة عالمية فى حدود سنة ٢٣٦٠ قبل الميلاد. وكانت حدود الدولة الأكدية مفتوحة فضمت البلاد منذ ذلك التاريخ أو قبله بألف عام موجات من الهجرات العربية التى ساهمت فى تأسيس الدولة العالمية. هذه الهجرات كانت تتدفق من شمال الجزيرة العربية إلى الجنوب على امتداد نهر الفرات، ومن الغرب إلى الشرق عبر شمال بلاد ما بين النهرين، ثم إلى الجنوب على امتداد نهر دجلة، وقد استقر المهاجرون فى الأصقاع الشمالية أول الأمر حتى إذا اكتظت وازدحمت بمن فيها أخذت الموجات التالية تتجه إلى المناطق الوسطى ثم الجنوبيّة. وتلك الهجرات كانت تأتى بشكل سلمى، وتمتزج بذرارى الموجات السابقة، وبخلائف السومريّين أبناء البلاد الأصليّين الذين لا تتوافر وثائق كافية لتوضيح جذورهم وتاريخهم، وإن كنت أميل إلى أنّهم لا يختلفون كثيراً عن الأكديّين. فالأكديّون لم ينشأوا من فراغ، ولكن لقلة الوثائق المؤكدة لصلتهم بالجزيرة العربية وقبائلها وألسنة ولهجات تلك القبائل اعتبرنا بداية "عربيّة العراق" الحقيقيَّة من الأكديّين[1].

(١) الأكديون: أشهر ملوكهم سرجون الأكدى الذى أقام إمبراطورية واسعة الأرجاء فى وادى الرافدين عرفت بـ "الإمبراطورية الأكدية" نسبة إلى مدينة "أكد" التى اتخذها عاصمة له. وهم من قبائل الجزيرة العربية التى استوطنت بلاد الرافدين منذ ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد، وقد عايشوا السومريين وتفاعلوا معهم إلى أن استولوا على دفة الحكم وأقاموا دولتهم، وبعد ذلك انصهرت فيهم العناصر السومرية والأمورية. راجع العراق فى التاريخ، ص٧٢.

إنّ الأكديين بقيادة "سرجون ٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م" كانوا أول من نادى بتوحيد الجنس البشرىّ وتحقيق السلام والازدهار للأرض - كلها - ونادوا بنشر الثقافة والحضارة بين البشر، وإقامة العدل والقانون.

وحين أضعفت غزوات الكوتيين الدولة الأكديّة وأدت إلى تمزيقها استطاع "العموريون" أو "الأموريون" (٢٠٠٠- ١٤٠٠ ق.م) وهم الذين كانوا يتكلمون اللّغة الأكدية وينتمون إلى ذات الأصول العربية - أن يعيدوا تأسيس دولة "سرجون العالمية" واتخذوا من "بابل" عاصمة لها، واستمروا كذلك إلى أن آل الأمر إلى "حمورابى ١٧٥٠-١٧٩٠ ق.م" "صاحب القوانين المشهورة». وقد كان العراق فى ظل الأكديين ومن بعدهم العموريين سيد المنطقة لقرون طويلة، حيث كان العراق - آنذاك - يضم بالإضافة إلى حدوده التى استقرت بعد ثورة العشرين، سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والأناضول. وحمورابى الذى سن القوانين المعروفة التى كان يعتقد أن إله العدالة - إله الشمس - وجّهَهُ لضم أركان العالم الأربعة تحت سيطرته، وأن الإله "مردوخ" وهو كبير الآلهة فى "مجمع الآلهة البابليِّين" قد كلفَّه بهداية الناس إلى طريق الحق وتوحيد البلاد وإقامة القانون والعدالة فى الأرض وتعزيز رفاهية البشر(١).

وحين قامت الدولة "الآشوريّة" (٢) من القرن الرابع عشر حتى سقوط "نينوى" عام (٦١٢) قبل الميلاد حافظت على اللغة ذات الجذور العربية

---

(١) راجع الهامش السابق، وقد حكم حمورابى أو عمورابى - كما يسميه بعضهم - اثنتين وأربعين سنة من سنة ١٧٩٣ ق م - ١٧٥١ ق م، وقد وحد العراق - كله- تحت قيادته وضمن حدوداً آمنة له. راجع العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص٩٤.

(٢) لقد تزامن وجود العرب فى الحيرة مع وجودهم فى الأنبار منذ عهود الساسانيين. لمزيد من التفصيل راجع: المفصل، مرجع سابق، ٣/ ١٥٥.

والثقافة والتراث الأكدى العربي والدين والحضارة والرسالة والقوانين دون تغيير كبير. وأعلنت أنها امتداد للدولة البابلية وآلهتها، وحققت السيادة على جهات الأرض الأربع وأخضعت مصر - من بين ما أخضعته من بلدان - لسلطانها [(١)].

وقد استمرت بلاد ما بين النهرين فى عطائها للعالم فأعطته الخط المسمارىّ، واللّغة الأكديّة الحضاريَّة وتراثها الأدبىّ. وحين نتتبَّع سائر الدول والحضارات التى قامت فى وادى الرافدين، أو بلاد ما بين النهرين نجد حدود تلك الدول - كلها - ومنذ تسعة آلاف عام تمتد لتشمل السهل والجبل، وأن ذلك الشعب هو نفسه شعب واحد سواء أولئك الذين كانوا يقطنون السهول أو الذين كانوا يقطنون الجبال، وكذلك حين تم فتح المسلمين للعراق كانوا يطلقون على السهل أو الوادى الذى يشمل الوسط والجنوب وشيئًا من الجنوب الغربى "عراق العرب"، ويطلقون على المنطقة الجبلية "عراق العجم" كعادتهم إذا أرادوا مزيدًا من التعريف، وبعض المؤرخين الذين لاحظوا آثار الحضارة "الأكدية" المشتركة أطلقوا على سكان المناطق الجبلية من العراق "عرب الجبال" [(٢)] فكان هناك عرب السهول وأرض السواد وعرب الجبال. وذلك

---

(١) الآشوريون: ينتمون للأصول نفسها وإلى الشجرة ذاتها التى تفرع عنها الأكديون والبابليون والأموريون والعرب ولغتهم، وهم الأقوام الذين استوطنوا العراق منذ مطلع الألف الرابع، وكان منبت تلك الشجرة الأولى فى شبه الجزيرة العربية مهد الأقوام الجزريين، ولهجتهم كانت إحدى لهجات اللغة الأكدية، واستخدموا الخط المسمارى أيضًا. راجع العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٢) هذه الدعوة ذكرها بعض الباحثين القوميين الذين أبدوا ميلاً لإنكار وجود قومية أخرى فى العراق بحجم القومية الكردية، وهو أمر لا يقبل، والاستدلال عليه بأن الأكراد =

يدل - بوضوح - على أنّ العراق لم يفقد وحدته منذ آلاف السنين إلا ضحية احتلال أو تغلغل خارجى فيه أو تقسيم مفتعل. وأن ما حدث له من تقسيمات إدارية نتيجة صراع السلاچقة والبُويْهيِّين ثم العثمانيّين والصفويّين [1]. وآثار

= يسكنون هذه المنطقة منذ ما قبل التاريخ، وأن الهجرات العربية الأولى التى جاءت قبل نهايات العهد السومرى انقسمت إلى مجموعات بعضها سكنت السهل وأخرى سكنت الجبل، ولكنهم جميعًا يتمون إلى السامية، وقد يسند بعضهم دعواه هذه بأسماء القبائل الكردية، ومحاولة إعادتها إلى جذور عربية مثل إعادة قبيلة مازورى الكردية إلى قبيلة مضر العربية وما إلى ذلك، ولكن الناس مؤتمنون على أنسابهم. ومهما يكن فالأكراد العراقيون جزءٌ من النسيج والخارطة الاجتماعية العراقية، ومن الضرورى أن يتذكر العرب والأكراد فى العراق ما بينهم من وشائج القربى، وما للكردى عليهم من أياد بيضاء فى خدمة الإسلام والعروبة، فليس هناك مسلم يستطيع أن ينسى صلاح الدينَ وما قدمه للأمة كلها، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وفى العصر الحديث أمير الشعراء أحمد شوقى وجميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى وغيرهم. فالقاعدة التى ينبغى أن تحكم فى علاقات العرب والكرد هى قوله تعالى: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾.

(١) السلاچقة: تسلط السلاچقة بتشجيع من الخليفة فى بغداد الذى استنصر بهم على البويهيين، وقد دخلها القائد السلچوقى من سنة ٤٤٧ هـ واستمر حكمهم حتى بدايات القرن السادس، حيث تمكن الخليفة العباسى من الاستفادة من خلافاتهم وخلافات أمرائهم فأمر بإيقاف الدعاء للسلطان السلچوقى عام ٥١٢ هـ، وقد انتهى حكمهم تمامًا ٥٨٢ هـ فى كل من العراق وإيران. العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص ٤٤٤-٤٤٩.
البويهيون: هم الفرس الديلم المنسوبون إلى "بويه" الذى كان يعمل حمالاً فى تلك المنطقة، من بحر قزوين، وحين رأى "بويه" ضعف سيطرة خليفة بغداد على تلك الأقاليم قاد الفلاحين فى منطقته فى حملة سيطر فيها على جبال الديلم ووسع سلطانه حتى شمل الهضبة الإيرانية كلها. وبعد وفاته خلفه أولاده الثلاثة فى سلطانه، ولما رأوا ضعف خليفة بغداد واسترخاء قبضته عليها قاد معز الدولة جيشًا نحو بغداد فاستولى عليها وأخذ مقاليد السلطة السياسية، ولم يبق للخليفة إلا السيادة الاسمية وسلطة إدارية محدودة. ولقد استمر تسلط البويهيين على العراق من فترة معز الدولة فى حدود سنة (٣٢٠-٤٤٧هـ/ ٩٣٢-١٠٥٥م). راجع: العراق فى التاريخ ص ٤٣٩-٤٤٤. =

صراع الدولتين خاصة العثمانية والصفوية عليه أو على أجزاء منه، وتداولهما التسلط عليه لمرات عديدة، لم يمثل ذلك كله وضعاً عادياً أو طبيعياً يمكن أن يسمح بادعاء أن العراق لم يكن سوى ولايات عثمانية ثلاث أو أربع وحَّدها الإنجليز فلا بأس من تفكيكها وتوزيعها وتفريقها من جديد، فلا التاريخ يؤيد تلك الدعوى ولا الجغرافيا ولا الدين ولا الثقافة ولا المصالح.

= العثمانيون: فى عهد السلطان سليم الذى حكم من ١٥١٢ - ١٥٢٠ اتجه العثمانيون إلى الشرق للاستيلاء على البلاد العربية ليبسطوا سلطتهم من خلال ذلك على الأمة الإسلامية -كلها- فدخلوا العراق وجعلوا منه ميدانًا للصراع مع الصفويين والسلالات الحاكمة فى إيران، وقد استمر الصراع بين الصفويين والعثمانيين فى الساحة العراقية حتى نهاية القرن التاسع عشر. وكانت آثاره على المجتمع العراقى فى غاية الخطورة. وقد دخل الصدر الأعظم بغداد فى ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١ هـ الموافق ٣١ نوفمبر ١٥٣٤م، وبعد يومين دخلها السلطان العثمانى سليمان الذى عرف باحترامه للأماكن المحترمة لدى كل الطوائف، وحاول إنصاف المظلومين وتوحيد الشعب من جديد. وقد تبنى الصفويون المذهب الشيعى فى حين تبنى العثمانيون المذهب السنى والفقه الحنفى، وقد سببت سنوات الاحتلال الصفوى والاسترداد العثمانى الكثير من الخراب والدمار فى النفسية العراقية إضافة إلى الآثار الاقتصادية السيئة التى أصابت الزراعة والصناعة والتجارة وكذلك انتشار الأوبئة والقلق الفكرى والثقافى. وقد كان الصفويون ينتهكون حرمة ضريح الإمام أبى حنيفة، مما دفع العثمانيين فى مرحلة من مراحل سيطرتهم على العراق إلى نقل مجموعة كبيرة من عشائر العبيد السنية للسكن فى الأعظمية لحماية ضريح أبى حنيفة من اعتداء الصفويين.

الصفويون: ينتمون إلى أسرة تركمانية صوفية تنتسب إلى الشيخ صفى الدين (ت ١٣٣٤م) الذى تبنى المذهب الشيعى، والذى امتد نفوذ طريقته بحيث تمكن أتباعه بعد فترة من السيطرة على إيران - كلها - وفى عشرين من جمادى الثانية ٩١٤ هـ فتح الشاه إسماعيل الصفوى الذى آلت إليه قيادة الصفويين بغداد. ومارس فيها الكثير من المذابح ما ذكرها بمذابح المغول، وقد أبدى اهتمامًا خاصًا بالعتبات المقدسة ومراقد آل البيت، وخرب المراقد الأخرى مثل قبر الإمام أبى حنيفة فى محاولة منه لإثارة الفرقة بين أبناء العراق ولتحقيق مزيد من الهيمنة عليهم والتمكن منهم.

استمرار عربيّة العراق دون انقطاع:

أما "عربية العراق" أو عروبته لغة وثقافة وجذوراً فهى أصيلة ضاربة فى القدم، تمتد - كما ذكرنا - إلى ما يقرب من أربعة آلاف سنة أو تزيد، وأسماء قبائله وأفخاذها ما تزال محفوظة، ولعل النهب الذى حدث للمتاحف والآثار مثل الذى حدث فى الغزو المغولى الأول أريد به تحطيم تلك الذاكرة التاريخيَّة، وإتلاف وثائقها تخلصًا من آثارها وتأثيراتها وإمعانًا فى قطع العراقىّ عن جذوره العريقة وتاريخه ليسهل استلابه وتغريبه، فعربية القرآن لم تنقطع، ولم تغب عنه فى أية مرحلة من مراحل تاريخه.

العراق والفتح الإسلامى وتميز التيارات الفكرية[1]:

فى العهد الإسلامى بعد الفتح أمر الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - عتبة بن غزوان بتأسيس مدينة "البصرة" لتكون قاعدة إسلامية على الضفة الغربية من شط العرب، وذلك سنة (١٦) للهجرة، وفى عام (١٧هـ) أمر الخليفة نفسه سعد بن أبى وقاص بتأسيس مدينة "الكوفة". وقد استقر فى المصرين - بعد ذلك - العديد من الصحابة والتابعين، واتخذ أمير المؤمنين علىٌّ - رضى الله عنه وأرضاه - مدينة الكوفة عاصمة له، وبعد استشهاده فيها بقى الحسن- سلام الله عليه - فيها فترة الأشهر الستة من خلافته إلى أن قرر التنازل المشروط لمعاوية على أن يعيد معاوية الأمر إلى الأمة بعده، وهو الشرط الذى لم ينفذه معاوية فمنح ولاية العهد لولده يزيد، وجعلها

(١) الفتح الإسلامى للعراق وأسلمته وإحياء عربيته وتفاصيل ذلك لا يخلو منها كتاب من كتب التاريخ التى تناولت فتوحات المسلمين، وكذلك الكتب والدراسات التى اهتمت بتاريخ العراق.

"كسروية هرقلية" خلافًا للاتفاق من ناحية، وخلافًا لمبادئ الشورى والرضا والبيعة وسائر المبادئ والشروط التى أرسى الإسلام دعائمها لتحقيق أهداف الأمة فى تنظيم حكمها.

وقد كانت إدارة العراق - فى تلك الفترة - قسمة بين واليين يلقب كل منهما بـ "الأمير"، أحدهما يقيم فى الكوفة، والآخر يقيم فى البصرة، وكان الأميران يتوليان إدارة العراق - كما هو فى حدوده الجغرافية اليوم وزيادة، فكان والى البصرة وأميرها يدير المناطق الجنوبية من العراق مضافًا إليها الأحواز وفارس وكرمان وسجستان ومكران وخراسان. أما أمير الكوفة فيشمل سلطانه أواسط العراق وشماله، إضافة إلى الأقاليم الشمالية من الهضبة الإيرانية بما فيها همدان وقزوين والرى وأصفهان (١).

ولمزيد من إيضاح وتدعيم هذا الثابت من الثوابت العراقيّة وهو ثابت "عربيَّة العراق ووحدته" واستمرار ذلك لآلاف السنين لا بد من دراسة حضارات وادى الرافدين قبل الفتح الإسلامى - الذى نعتبره إحياءً وتجديدًا لعربيّة العراق كما هو أسلمة له صار يعزى إليه فى العراق، وما آل إليه فى ظل الإسلام من وحدة وتقدم وازدهار وعمران (٢).

إنّ العراق - لأسباب كثيرة - احتفظ بالكثير من المزايا والخصائص التى ميزته عن الأقاليم الأخرى للدولة الإسلامية، فهو مركز الحضارات القديمة

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع الفصل الثانى "إدارة العراق" من كتاب "العراق فى التاريخ" ص ٣٢١-٣٤٠ مرجع سابق.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع: أطلس الحضارة الإسلامية للشهيدين إسماعيل الفاروقى، ولمياء الفاروقى، رحمهما الله، الطبعة العربية، ص ٦٥-٨٠، وكذلك كتاب العراق فى التاريخ، مرجع سابق.

التى ترجع جذورها إلى آلاف السنين، وله من الصلات والوشائج بالعرب وبالجزيرة العربية وغيرها ما ليس للأقاليم الأخرى، واستيطان المئات من الصحابة وقادة الفكر والرأى فى مصْريه العظيمين بعد الفتح الإسلامى - الكوفة والبصرة - أضافت إلى مزاياه مزايا أخرى، فليس بمستغرب- بعد ذلك - أن تنشط فيه التيارات الفكرية والسياسية التى غذتها الأحداث الكبرى المشار إليها. ولذلك بدأت فيه بدايات الفكر الفلسفى الإسلامى، ومعها بدأت تظهر الفرق والتيارات الفكرية المختلفة التى كان معظمها مزيجًا من الدين فى أكمل صوره، والعلم والعقل فى أبهى مظاهرهما. وكان التنوع والتعدد من أهم مزاياه [1]، وقد اشتمل الأدب والتراث العراقيان على تراث ضخم متنوع فى قضايا احترام المخالف فى الرأى أو المعتقد أو الانتماء مما يحتاج إلى إحياء ليستفيد به العراقيون ومن سواهم، وفى العراق تبلورت آداب الحوار والجدل والمناظرة والاختلافات باعتبارها وسائل لجعل التنوع والاختلاف مصادر قوة لا مصادر ضعف.

---

(١) لمعرفة أهم الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية التى نشأت فى العراق يمكن أن نجد بعضه فى الفصل الرابع من كتاب "العراق فى التاريخ" مرجع سابق، ص ٣٥٣-٣٥٦، وكذلك كتاب الدكتور على سامى النشار «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام»، و«تاريخ المذاهب الإسلامية» لمحمد أبو زهرة.

الثابت الثانى

إسلاميّة العراق فى الفتح الإسلامى

تلك هى سمة العراق حين بدأ المسلمون فتوحهم. حيث إن التخطيط لفتح العراق بدأ فى السنة السادسة للهجرة حينما بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - كتابًا إلى كسرى أبرويز ملك الفرس يدعوه فيه إلى الإسلام، حمله إليه عبدالله بن أبى حذافة السهمى - رضى الله عنه - فمزق كسرى كتاب الرسول ﷺ وبعث إلى عامله فى اليمن أن ابعث إلىّ بهذا الرجل الذى فى الحجاز أو برأسه. وحين علم الرسول ﷺ بأمره قال: "مزّق الله ملكه" وما لبث أبرويز إلا أيامًا حتى ثار عليه ولده شيريويه واغتصب ملكه(١).

وفى العام الثانى عشر للهجرة جهز الخليفة أبو بكر - رضى الله عنه - جيشًا بقيادة خالد بن الوليد لفتح العراق، وتم له فتح "الحيرة" التى كان سكانها عرباً، وبينهم وبين بقيَّة أهل العراق رابطة دم وتعاطف، وتجمعهم لغة واحدة ودم واحد.

الفتح الإسلامى ومراحله:

وحينما تطلب الموقف السوقى تدعيم جيش فتوح الشام كتب أبو بكر يأمر خالدًا، الذى كان يعمل فى فتح العراق وتحريره من الهيمنة الساسانية، بالتوجه

(١) راجع: العراق فى التاريخ، ص ٢٦٢. مرجع سابق.

بمعظم جيشه إلى الشام على أن يترك حامية يستخلف على إمرتها المثنى بن حارثة الشيبانى فى العراق.

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بعث حملة جديدة بقيادة سعد بن أبى وقاص لتجديد الجهاد ضد الهيمنة الفارسية فى عهد يزدجرد. سار الجيش الإسلامى ونزل بسهول القادسية جوار المكان الذى شيدت فيه الكوفة، وجرت معركة القادسية التى انتصر فيها المسلمون وقتل فيها رستم أحد مشاهير قادة الفرس، وقد تم ذلك فى العام الخامس عشر للهجرة (١).

وفى عام (١٦هـ) أسس عتبة بن غزوان مدينة البصرة بأمر من الخليفة عمر على الضفة الغربيّة من شط العرب على بعد حوالى (١٧) كم من الخليج.

اجتاز سعد بن أبى وقاص نهر الفرات واستولى على المدائن التى لا تزال بعض آثارها قائمة حتى الآن. متمثلة بـ" طاق إيوان كسرى " الضخم، ثم توجه الجيش الإسلامى شمالاً قاصداً جلولاء وتكريت والموصل.

وفى عام (١٧هـ) شيد سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة فاستقر فى هاتين المدينتين (البصرة والكوفة) كثير من القبائل العربية، وأصبحتا فى أواخر عهد الخلفاء الراشدين وفى العهد الأموى من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، التقت فيهما الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى ببقايا الحضارة الزائلة، كما ازدهرت فيهما التجارة بين الشرق والغرب.

---

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير، والعراق فى التاريخ، ص ٣١٥.

إبقاء أرض السواد بأيدى أهلها:

يحدثنا التاريخ أن معارضة قوية جوبه بها سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- حينما رفض تقسيم أراضى السواد بالعراق على الغانمين، مفضلاً بقاء الأرض بأيدى أصحابها الأولين قائلاً: (ألا وإنّ قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا وإن ابن الخطاب حىٌّ فلا، إنى قائم دون شِعب الحرَّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار).

وفى عهد عثمان - رضى الله عنه - اقتنى رهط من الصحابة الدور والضياع، واستقر فى العراق ما يزيد على ثلاثمائة من الصحابة - رضوان الله عليهم - فى مقدمتهم عبدالله بن مسعود الذى كان له أعمق الأثر فى بناء قواعد مدرسة العراق الفقهية. وهكذا أصبح العراق جزءًا من الدولة الإسلامية الكبرى تعلو فيه كلمة الله وتطبق على أرضه شريعة الله، لم يجزأ، ولم يقسم، ولم تبعثر أرضه بين الغانمين.

كما تحول إلى قاعدة إسلاميّة متقدمة للفتوح المتوجهة إلى نواحى الشرق المختلفة، ومنها يجرى إعداد الجيوش الإسلامية ومدها بالمقاتلة والمؤن. كما أصبحت الكوفة والبصرة مقرين أساسيين ومتقدمين للقيادة العسكرية الإسلامية فى جبهة الشرق. فأمير البصرة يدير المناطق الجنوبية من العراق مضافًا إليها الأحواز وفارس وكرمان وسجستان ومكران وخراسان. وأمير الكوفة يتناول سلطانه إضافة إلى أواسط العراق وشماليه الأقاليم الشمالية من الهضبة الإيرانية بما فيها همدان وقزوين والرى وأصفهان[1]، ثم انتقلت السلطة إلى والى "خراسان" بعد ذلك.

---

(١) راجع الهامش رقم (١) ص(٢٠، ٢١)، وكذلك كتاب العراق فى التاريخ، ص ٣٢٣، وكتاب محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مبحث اجتهادات عمر.

الكوفة عاصمة الإمام على:

وحينما بويع أمير المؤمنين الإمام علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - بالخلافة واضطر لمغادرة المدينة اتجهت الأنظار إلى البصرة حيث بدأت بوادر تشير إلى قرب وقوع أول معركة داخلية أو حرب أهلية يخوضها المسلمون ضد مسلمين مثلهم فى الدين واللغة والهدف والتاريخ، تلك التى عُرفت بمعركة "الجمل" التى ذهب ضحيتها عشرة آلاف من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين. ولم تقتصر آثارها - فى معظم تقديرات المؤرخين - على ذلك، بل تركت من الآثار الفكرية والفقهية والاجتماعية والانقسامات التى لا تزال الأمة تعانى منها حتى اليوم الشىء الكثير(١).

ثم اتجهت الأنظار مرة أخرى إلى الكوفة حينما اتخذها أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - مقرًا له وعاصمة، واستمرت كذلك إلى أن استشهد فيها وبايع مبايعوه لولده الحسن -رضى الله عنه- الذى قضى الله سبحانه وتعالى به على الفتنة حيث تنازل بعد ستة أشهر من توليه الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان على شروط أفاض المؤرخون بذكرها، وكان أهمها أن يعود أمر الأمة إليها بعد معاوية، فليس لمعاوية بمقتضى ذلك الاتفاق أن يوصى بالخلافة لأحد، أو يفرض على الأمة اختياره، بل يعود أمر الأمة "شورى" إليها. ومن هنا فقد كانت تولية يزيد نقضًا لذلك الاتفاق، وانقلابًا على بنوده.

---

(١) معركة الجمل: سميت بمعركة الجمل نسبة إلى الجمل الذى كانت أم المؤمنين عائشة تركبه حين التقى الجمعان (جمع على أمير المؤمنين وأتباعه، وجمع عائشة الذى رفع شعار المطالبة بدم عثمان). لمزيد من التفاصيل راجع: السيرة النبوية لابن كثير وابن هشام، والبداية والنهاية، وتاريخ الطبرى، والكامل لابن الأثير.

وكان تنازل الحسن - رضى الله عنه - عملية جمع شمل للمسلمين وإعادة توحيد للأمة بعد الفرقة والفتنة، وكان ذلك من أعلام النبوة ودلائلها، فقد صحّ قول الرسول ﷺ فيه : "**إنّ ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**[1]".

يعد تاريخ ذلك التنازل النهاية الحقيقية للخلافة الراشدة، وبقطع النظر عن اختلاف الآراء والمذاهب فى حكم وحكمة هذا التنازل وآثاره فإنّ يوم وقوعه قد اعتبر البداية الحقيقية لقيام الدولة الأموية، كما اعتبر بداية لتحول الحكم والسلطان والإدارة المباشرة إلى الشام، حيث يقيم خلفاء بنى أمية وأعوانهم.

إنّ العراق لم يعد إقليمًا كسائر الأقاليم التى دخلت الإسلام فتحًا أو صلحًا بل صار محضنًا للإسلام لا يختلف عن المدينة أو مكة فى الإنتاج الفكرى، والتفاعل مع الإسلام، بل صار مصدراً من مصادر إثراء وتأسيس الفكر الإسلامى بكل أنواعه : الفلسفى والكلامى والفقهى والتفسيرى والحديثى واللّغوى بكل فروعه. وإذا كان "التشيُّع" قد نشأ فى المدينة فقد تبلور فى العراق. أما المذاهب السنيَّة الأربعة المتبوعة فإن ثلاثة منها قد نشأت وتبلورت وأخذت أبعادها فى العراق. وإذا كان الإمام الرابع مالك لم يعش فى العراق فإنّ العراق قد احتضن مدرسة مالكية كان لها أثر بالغ فى بلورة المذهب وإثرائه، وإنماء الفقه الخلافى أو المقارن فيه[2].

(١) الحديث رقم (٢٧٠٤) فى صحيح البخارى، كتاب الصلح.
(٢) راجع كتاب : الإمام زيد، للشيخ محمد أبو زهرة، وفيه تفاصيل وافية عن الإمام زيد ومدرسته وبروز التشيع فى المدينة المنورة.

ومن هنا يتضح بشكل لا يقبل الشك أو الإزالة أنّ "إسلام العراق" هو ثابت ثان من الثوابت العراقية لا يمكن التشكيك فيه، ولا التنكر له ولا تجاوزه فضلاً عن نفيه. وهو فى الوقت نفسه إسلام لا يقبل تضييقًا ولا تجزئة ولا تهميشًا، فهو إسلام بالمعنى القرآنى النبوى الشامل للإسلام. فإذا كان هذا الإسلام يتسع لشىء أو يضيق عنه فلا بد من أخذ ذلك بنظر الاعتبار.

واستغلال الدين من بعض الحاكمين أو الفئات والأحزاب لن يجعل العراقيين على استعداد للتنازل عن إسلامهم وإيمانهم بحال من الأحوال. ونبى الإسلام الأول أبو الأنبياء إبراهيم الخليل بدأ دعوته إلى التوحيد فى جنوب العراق، حيث نشأ وترعرع، وتلقى النبوة وبدأ الدعوة إلى التوحيد والإسلام فى مدينة "أور" قرب الناصرية فى جنوب العراق. ومنها انطلق إلى ما عرف بـ "منطقة التجوال الإبراهيمى".

***

الثابت الثالث

التنوع العراقى فى الأديان والمذاهب واللغات وطبيعة الأرض

يعجبنى بيت بالفارسية كنا نتندر به فى جلساتنا (الأخ السيد الشهيد مهدى الحكيم[1] والفقير إلى الله تعالى) وهو :

شــيــعى بغـــداد سنِّيَ أسْت   سُنّى بغـــداد كـــافـــرَ أست

وهو بيت ركيك ، يبدو أن أحد "الأخباريِّين"[2] نظمه ، ومفاده أن الشيعىّ العراقىّ - فى نظر هؤلاء - سُنىّ. والسنَى فى نظرهم كافر . فإذن شيعة العراق وسنته فى نظر الأخباريّين وهم "سلفيو الشيعة والماضويّون منهم" كفار . كنّا نتضاحك لذلك ، ونجد فى الماضويّين من الفريقين تشابهًا وتقاربًا كبيرين . على كل حال ، ما نريد أن يدركه العراقيون جميعًا السنة منهم والشيعة وكذلك

(١) الشهيد مهدى بن السيد محسن الطباطبائى الحكيم : هو صديق عزيز وفقيد غال ، والده السيد محسن - رحمه الله - إمام الشيعة الإمامية فى عصره ، والذى أعطتْ أسرته الكريمة مع السيد مهدى الحكيم والسيد باقر الحكيم ثلاثة وستين شهيداً فى ظل نظام الحكم الصدامى . تغمدهم الله جميعًا برحمته وتقبلهم عنده فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد كان اغتيال السيد مهدى فى ١٧/ ١/ ١٩٨٨م فى فندق هيلتون/ الخرطوم بأيدى البعثيين .

(٢) الأخباريون : طائفة من الشيعة بعضها مشبّهة وبعضها سلفية . لمزيد من التفاصيل حولهم راجع : الملل والنحل للشهرستانى (١/ ٣٣٣) طبعة الحلبى ١٩٦٨ .

العرب والأكراد والتركمان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين أن التشيُّع والتسنن كالعربية والكردية وما إليهما: ثابت آخر من ثوابت العراق الكبرى، فعروبة العراق وإسلام العراق لا يحلقان إلا بجناحين هما الشيعة والسنة معًا وإسلام العراق لا يحلق إلا بجناحيه العربى والكردى إضافة إلى الإخوة التركمان ومن إليهم. وأن تلك الفرية التى روّج لها الطائفيُّون والعنصريون السياسيُّون فى ظروف عديدة من كون الشيعة أعاجم. وأن التشيُّع فى العراق وافد عليه، إنما هى خطأ فاحش، وجهل لا يغتفر بتاريخ العراق، وجغرافيَّته البشريّة والاجتماعيّة؛ فإن كون التشيّع فى العراق عربىّ المولد والنشأة والتطور إنَّما هو بديهيّة تاريخيّة لا يمارى فيها إلا جاهل أو مغرض(١).

لقد ولد التشيع ولادة طبيعية فى بيئة المدينة المنورة، وبعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فكان سهلاً بسيطًا يعتمد على اعتبار الإمام علىّ - رضى الله عنه - أولى بالخلافة وأقدر على تحمل أعبائها من سواه لأسباب كثيرة وصفات عديدة كان يراها بعض الصحابة شروطًا فيمن يخلف رسول الله ﷺ فى قيادة أمته، وقد تولى علماء الكلام وفقه الإمامة بسط تلك الأسباب والأدلة والمناقشات فى مبسوطاتهم. وإذا كان الشيخان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - قد توليا وعدلا كما أن صهرهما لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واقتران اسميهما فى ذاكرة ذلك الجيل باسمه، وسابقتهما فى الإسلام وفارق السن، والقوم حديثو عهد بالمنظومات القبليّة التى لا يمكن تجاهل دور

---

(١) دراسة تاريخ القبائل العربية والعراقية بصفة عامة لا يدع مجالاً للشك فى هذا الحقيقة. وفى سائر الأحوال فإن المذاهب الإسلامية - كلها - تعود إلى العقيدة الإسلامية والشريعة القرآنية، وتستند إلى محكم آياته، وتجتمع عليه، واختلافاتها اختلافات تقع فى دائرة الاجتهاد المأمور به شرعاً. لمزيد من التفاصيل راجع: العراق فى التاريخ، مرجع سابق.

السن فيها، فإنّ ذلك لم يمنع عددًا من آل البيت ومن الصحابة أنْ يروا أنّ عليّا كان الأقدر على حمل أعباء الخلافة، ومتطلباتها والوفاء بجوانبها الخطيرة. وبعضهم كان يرى في الأحاديث التي نوهت بفضائل الإمام مثل حديث الغدير [(١)] وحديث استخلافه على المدينة ليخلف رسول الله ﷺ فيها في إحدى غزواته وقوله له: "**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**"[(٢)]، ذلك كلّه قد عزّز من اتجاه التشيّع للإمام عليّ. وإذا لم يظهر ذلك بشدة في عهد الشيخين لعدلهما وسابقتهما وصهرهما لرسول الله، وصهر عمر لعلي واستيزارهما لعليّ كل بطريقته. وتصريح عمر المعلن: "لولا علي لهلك عمر"[(٣)] فإنّ ذلك قد ظهر بوضوح شديد في عهد عثمان - رضي الله عنه - وبخاصّة بعد السنوات الست الأولى من خلافته، حتى أخذت لدى البعض

---

(١) حديث الغدير: أو خبر الغدير: واحد من أخبار كثيرة ومتعددة وردت من طرق كثيرة في فضائل الإمام عليّ - كرم الله وجهه- فمن حديث زيد بن أرقم ورد من طرق عدة منها: قال: (استشهد على الناس فقال: أنشدك الله رجلاً سمع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول "**اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عداه**" قال فقام ستة عشر رجلاً فشهدوا). الحديث أخرجه الترمذي والإمام أحمد في الفتح الرباني ٢٣- ١٢٥ وقد كتب السيد العاملي موسوعة حول الحديث والواقعة التي قيل فيها قبل وفاته بلغت أحد عشر مجلدًا.

(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال (خلف رسول الله ﷺ عليّا بالمدينة في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني في الخالفة في النساء والصبيان فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) الحديث رواه مسلم ١٥/ ١٧٤، وذكره صاحب الفتح الرباني ٢١ / ٢٠٤.

(٣) راجع حديث من أمر عمر بالإقرار برجمها فاعترض عليٌّ، وأقر عمر عليّا في ذلك. نص الحديث في: محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م، ص٢٦٥.

مظهراً شرعيّا حول اشتراط عربيّة الخلافة، بل قريشيتها، ثم بلغت حد القول بهاشميتها. وعُرف هذا المذهب في مدارس المدينة المنورة أولاً، ومنها بدأ ينداح في الأمصار الإسلامية الأخرى وخاصة في اليمن والعراق. وبنى على ذلك فقه ربّما قد نسيت أسباب ظهوره ولكنه ما زال متداولاً في كتب الفقه حول جواز الصلاة بغير العربية من عدم جوازها؟ وجواز ترجمة معاني القرآن إلى لغات أخرى من عدم جوازها؟. وهل توجد في القرآن كلمات غير عربية، أو لا توجد فيه كلمة واحدة من خارج لسان العرب؟. وكذلك أحكام الأذان والإقامة وخطب الجمعة والعيدين بغير العربيّة. وهل يجوز تقديم أي منها بغير العربية؟ أو يعد ذلك مبطلاً لأثر الفعل؟! وإذا لُجئ إلى الضرورات، فما الضرورة في هذه الحالة؟ وكيف تقدَّر؟ وهل هناك فسحة زمنيّة لا يعذر غير العربيّ بعدها بتقديم شيء من ذلك بغيرها[1]؟.

كل ذلك الفقه والخلاف فيه والجدل حوله ارتبط بهذا الأمر بشكل أو بآخر، أو تولد عنه. فالتشيّع - إذن - بدأ عربيّا، وتطوّر بين العرب، وعنهم انتشر في الأماكن الإسلامية الأخرى. وفي حين كان التشيّع ظاهرة معروفة لدى العرب كانت إيران سنيّة، وتنتشر فيها المذاهب الفقهية السنية عدا "قم" وبعض الأحواز[2]، وقد بقيت إيران في ذلك الوضع حتى قيام الدولة الصفوية فيها

(١) نجد هذه المباحث في أبوابها من كتب الفقه، ومن الجدير بالتنويه أن أئمة الشيعة يرون ضرورة أداء الأذان والصلاة بالعربية. وكذلك أركان الخطبة، ولهم في ذلك بحوث مطولة. في حين ذهب الحنفية إلى جواز ذلك. وكل ذلك نابع عن اجتهاد صادر من أهله، ولذلك فإنه اجتهاد معتبر.

(٢) راجع كتاب "الشيعة والدولة القومية"، حسن العلوي، وانظر هامش رقم ٣٨.

فى القرن الهجرى العاشر وأوائل القرن الميلادى السادس عشر . فحملت الدولة الصفوية الإيرانيين على التشيُّع الذى عرف بـ "التشيُّع الصفوىّ" تمييزاً له عن التشيّع العربىّ - الذى كان بعضهم يصفه "بالتشيّع السنّى" أى التشيّع الموافق للسنة النبويّة .

والشعراء العرب الذين جندوا أنفسهم، وكرّسوا شعرهم للإشادة بالتشيع وبيان مناقبه، والدعوة إليه، جلهم إن لم يكن كلهم من القبائل العربية المعروفة التى تبنّت ذلك الاتجاه منهم دعبل بن علىّ الخزاعى [1]، صاحب القصائد المشهورة، ومنها تائيته المشهورة، وفيها جاء قوله :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحى مقفر العرصاتِ
ديار علىّ والحسين وجعفر	وحمزة والسجاد ذى الثفناتِ
قفا نسأل الدار الذى خف أهله	متى عهدها بالصوم والصلواتِ
بنات زياد فى القصور مصانة	وآل رسول الله فى الفلواتِ
تراث بلا قربى وملك بلا هدى	وحكم بلا شورى بغير هداةِ
رزايا أردنا خضرة الأفق حمرة	وردت أجاجًا طعم كل فراتِ

(١) دعبل الخزاعى : (١٤٨ - ٢٤٦ هـ/ ٧٦٥ - ٨٦٠ م) دعبل بن علىّ بن رزين الخزاعى، شاعر هجاء أصله من الكوفة، أقام فى بغداد، له أخبار، وشعره جيد، وكان صديقًا للبحترى، وصنف كتابًا فى طبقات الشعراء وكان مولعًا بالهجاء والحط من أقدار الناس، وهجا الخليفة الرشيد والمأمون والمعتصم، وتوفى ببلدة تدعى الطيب فى خوزستان.

والكميت الأسدى[1] وقصائده التى عرفت بالهاشميات، ومنها قوله :

وقـــالوا ترابىٌّ هواه ورأيه   بذلك أدعَى دائمًـــا وأؤنـــبُ

وقـــالوا ورثناها أبانا وأمنا   ومـــا ورثتـــهم ذاك أم ولا أبُ

يرون لهم حقّا على الناس واجبًا   سفاهًا وحق الهاشميين أوجبُ

ومـا لى إلاّ آل أحـمـد شيـعـة   وما لى إلا مذهب الحق مذهبُ

وكذلك الفرزدق [2] صاحب الموقف المشهور الذى قال فيه قصيدته الذائعة الصيت :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والحِلُّ يعرفه والبيت والحرم

بل إنّ الإمام الشافعى[3] كاد يدفع حياته ثمنًا لولائه لآل البيت وتبنيه لذلك النوع من التشيع، وهو الذى روى الرواة قوله :

---

(١) الكميت الأسدى : (٦٠-١٢٦ هـ/ ٦٨٠-٧٤٤م) الكميت بن زيد بن الأسدى شاعر الهاشميين ومن أهل الكوفة، اشتهر فى العصر الأموى وكان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، وكان منحازًا إلى بنى هاشم كثير المدح لهم، ومن أشهر أشعاره "الهاشميات" وكان خطيبًا لبنى أسد وفقيهًا للشيعة وفارسًا شجاعًا.

(٢) الفرزدق (١١٠ هـ/ ٧٢٨م) هو همام بن غالب التميمى، شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر فى اللغة وكان يقال : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب. وهو صاحب الأخبار والنقائض مع جرير والأخطل وكان شريفًا فى قومه عزيز الجانب.

(٣) الإمام الشافعى (١٥٠- ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧-٨٢٠ م) هو محمد بن إدريس بن العباس القرشى المطلبى، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد فى غزة وحمل منها إلى مكة، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفى بها، وكان - رحمه الله - أشعر الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات، وله تصانيف كثيرة أشهرها (الأم) فى الفقه، ومن كتبه أيضًا "المسند" و"أحكام القرآن" و"السنن" و"الرسالة" وله العديد من التصانيف المشهورة.

يا راكبًا قفْ بالمحصب من منى واهتف بقائم أهلها والقاعد

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضىّ

وحين أحضر بين يدى الرشيد من اليمن مصفدًا بتهمة التشيّع لآل البيت - آل على - دار بينه وبين الرشيد حوار طريف جاء فيه قوله: "يا أمير المؤمنين أتلومنى على حبى لبنى عمومتك وأهلك؟"(١) وهناك الكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال فى هذا المجال لإثبات هذا الذى نعده إحدى البديهيات. ولعل فى هذا ما ينبه إلى سواه.

الماضى القريب والدور الشيعىُ فى صناعته(٢):

أما ماضى العراق القريب فيمكن تناوله فى محاور:

المحور الأول: الاحتلال البريطانى الذى تمخضت عنه حملة "ديلامين" الذى احتل "الفاو" بعد أسبوع من إعلان الحرب، ولكن المقاومة العراقية - التى كانت غالبيتها العظمى من العشائر الشيعية، والتى تحركت بتوجيه المراجع الدينيّة - عرقلت تقدمه فلم تستطع القوات البريطانية إسقاط البصرة إلا فى ٢٣/ ١٠/ ١٩١٤م، ولم تتمكن من احتلال بغداد رغم كل التعزيزات التى تلقتها من الهند إلا فى ١١/ ٣/ ١٩١٥م بعد معارك طاحنة، واستمر العراق الأعلى حتى بعد سقوطه يقاتل إلى أن عقد الأتراك والإنكليز الهدنة فى

---

(١) استقدام الرشيد للشافعى، ورد ذلك فى جل الكتب التى كتبت فى مناقب الإمام الشافعى، والتى جاوز عددها الأربعين.

(٢) من بين أهم المصادر التى بينت الدور الشيعى فى العراق كتاب: عبد الله النفيسى، دور الشيعة فى التطور السياسى فى العراق، وكتاب: الشيعة والدولة القومية لحسن العلوى.

٣٠/ ١١/ ١٩١٨م. وقد كبدت المقاومة العراقية بكل فصائلها البريطانيين ما يزيد على مائة ألف[1] بين قتيل وجريح، ووافق مؤتمر الحلفاء المنعقد في "سان ريمون" على قيام بريطانيا بالانتداب على العراق، وجاء في صك الانتداب: أن بريطانيا سوف تسعى لإنشاء حكومة عراقية تضمن "عصبة الأمم" - آنذاك - استقلالها، وتخضع لانتداب بريطانيا عليها لحفظ الأمن في الداخل وسلامة الدولة من أي اعتداء من الخارج. ويوضح صك الانتداب: أن على بريطانيا وضع النظام الأساسي (الدستور العراقي) على أن تستشير العراقيين في وضعه، مع ملاحظة حقوق الطوائف المختلفة في العراق ورغباتها ومصالحها. وخوّل المندوب السامي البريطاني تأليف مجلس شورى يرأسه عربي، ومجلس تأسيسي يمثل العراق كله. ومن الطريف أن المجلس الذي شكّله المندوب السامي كان يتألف من خمسة وعشرين عضواً!!! فتأمل، ولم يستطع المندوب السامي تمريره آنذاك!!

في ٢٠/ ٦/ ١٩٢١م وصل الأمير فيصل بن الشريف حسين إلى العراق واختير ملكًا دستوريًا في ٢٣/ ٨ من السنة نفسها، وابتدأت المفاوضات مباشرة بعد تتويج الملك، حيث قدم المندوب السامي "كوكس" مسودة لإعادة تنظيم العلاقات بين العراق وبريطانيا، واستمرت المفاوضات فترة من الزمن طويلة لمجابهتها معارضة شعبية شديدة، ولم توقع إلا في ١٠/ ١١/ ١٩٢٢م، حيث تم الاتفاق عليها، على ألا تكون نافذة إلا بعد موافقة المجلس التأسيسي عليها، ولم تزل - بعد ذلك - تستقيل وزارة وتشكل أخرى حتى ٢٧/ ٣/ ١٩٢٤م حيث أقرها المجلس التأسيسي - الذي كان قد تم تشكيله -

(١) راجع: العراق في التاريخ، مرجع سابق، ص ٦٦٢-٦٦٦.

بأغلبية ضئيلة مما يشير إلى تنامى الوعى الشعبى على ما كان يجرى . وهذا الذى نراه بعد ما يزيد على ثمانين عامًا ما هو إلاّ إعادة إنتاج شائهة لما حدث آنذاك من بريطانيا، كما ترى. وقد استطاعت بريطانيا بوصفها الدولة المنتدبة أن تحصل على قرار بضم الموصل إلى العراق[1]، لا إلى تركيا، والقضاء على حكومة "السليمانية" التى كان الشيخ "محمود الحفيد" قد أقامها فيها، ونادى نفسه ملكًا عليها[2]، فأخذ العراق حدوده التى كانت عليها فى أوائل العهد الملكى، وهى حدود أضيق بكثير من حدود العراق التاريخية التى ذكرناها.

ثورة العشرين هى الأم الشرعية للعراق الحديث:

إنَّ المقاومة الباسلة للاحتلال منذ سنة ١٩١٤م جعلت روح المقاومة عالية قوية مما جعل "ثورة العشرين" تبدو وكأنها صفحة أخرى أو امتداد لمقاومة الاحتلال، وقد توجت هذه الثورة بالنصر يوم صرح رئيس وزراء بريطانيا بأنه "لا يريد أن يجعل من العراق مقبرة لجيوش بريطانيا" . وكل النتائج التى حصلت من إقامة النظام الملكى وتنصيب "فيصل بن الشريف الحسين" ملكًا، والتخلى عن الاحتلال إلى الانتداب، وتحول القوات المحتلة إلى ضيوف فى قواعد، ثم إبرام المعاهدة، وسائر التطورات التى جاءت بعد ذلك، لا يمكن أن تقرأ إلا فى ضوء ذلك الانتصار الذى نجم عن ثورة العشرين.

---

(١) أعد المرحوم عبد الرحمن الجليلى كتابًا فى مجلد حول تاريخ الموصل خصص فيه قسمًا كبيراً منه لهذا الموضوع.

(٢) وقد أصدر الشيخ محمود الحفيد طابعًا بريديًا لمملكته يعد من أغلى الطوابع البريدية الآن، ولولا الطائرات البريطانية لما تمكنت حكومة الملك فيصل من القضاء على دولته.

وثورة العشرين ثورة قادها المراجع وعلماء الدين، وكان جندها ووقودها العشائر شيوخاً وقبائل. واشترك فيها الشيعة والسنة، ولكن عبئها الأكبر تحملته عشائر الفرات الأوسط الشيعيّة ومراجعها العظام. وقد كانت العشائر السنية غير بعيدة عن المشاركة فى الأماكن التى أمكن لعشائرها أن تشارك فيها وبفاعليَّة أقل وتتحرك بذات الاتجاه مثل عشائر "زوبع" و "شمر" و "عنزة" وبعض العشائر الكرديّة السنية. ولكن التمركز العسكرى وطرق مواصلات الحملات البريطانية النهرية والبرية جعلت العبء الأكبر يقع على عشائر الشيعة، خاصة عشائر الفرات الأوسط.

ما أشبه الليلة بالبارحة وما أروع المراجع والعلماء الشيعة الذين لم يتأثروا بمواقف الأتراك السلبيّة ضدهم قبل ذلك، والتى عانى أتباع المذهب الشيعى ومراجعه منها الكثير، ومع ذلك فقد دعوا العراقيين والعشائر وحشّدوهم ودفعوهم إلى مقاومة الإنكليز ومناصرة القوات التركيّة فى الجيوب التى كانت تدافع عنها قبل توقيع تركيا اتفاقية الهدنة. فهم لم يفعلوا ما فعله قادة الثورة العربية فى الحجاز من مقاتلة الأتراك إلى جانب الإنكليز حتى فى مكة والمدينة المنورة ونسف سكة حديد الحجاز، وهى السكة التى لم يستطع عرب المنطقة حتى يومنا هذا من إعادة بنائها لتربط بينهم من جديد. ومن المؤسف أن نسفها قد تم بيد لورنس ومساعدة عربيّة (١).

---

(١) تعد طرق المواصلات ووسائل الاتصال من أهم الوسائل التى توجد التقارب والتداخل بين الشعوب والأمم، وتهيئ الأرض لتقوية العلاقات والتعارف وإيجاد وسائل التداخل وبناء المصالح المشتركة، ومن أهم الأمثلة الحية على ذلك القارة الأمريكية الحافلة بكل ما فى العالم من أديان ومذاهب وجذور إثنية وإقليمية لكن وسائل المواصلات جعلت منها بلداً موحداً. ولو أن أولئك الذين خرقوا أسماع الشعوب العربية بشعارات=

لم يكن سهلاً إقناع أولئك المراجع وكبار العلماء بتشكيل حكومة عراقية تحت الانتداب، لكن مساعى "الأشراف" وأنصارهم ووعودهم الكثيرة أقنعت غالبيتهم بالموافقة الصامتة - كما أسميها - على ذلك، ولكنهم لم يقبلوا ولم يشجعوا الشيعة على الانضمام إلى الحكومة الجديدة، بل كان غالبيتهم متحفظين على المشاركة. ولولا أن بريطانيا أعلنت وأكدت بكل المؤكدات أن تنصيب فيصل وتشكيل حكومة وطنية ومجلس تأسيسى ما هو إلا تمهيد لا بد منه للانسحاب ومنح الاستقلال، لربما استمرت المقاومة حتى الجلاء التام، والاستقلال الكامل. وحين رأى الإنكليز ذلك قرر "السير كوكس" أن يلعب اللعبة الاستعمارية البغيضة القائمة على مبدأ "فرقْ تسُدْ".

الطائفية السياسية وبذورها (١):

قرر "كوكس" إسناد الحكومة الأولى إلى السيد "عبد الرحمن النقيب" دون تشاور مع فصائل الشعب الأخرى، وخاصة أولئك الذين تحملوا عبء الثورة وتحقيق التحرير، وجمع بين "فيصل" "حليف بريطانيا" و"النقيب»

=الوحدة والاتحاد أعادوا بناء سكة حديد الحجاز وربطوا سائر الأقطار العربية والمسلمة بخطوط مواصلات وشبكة اتصالات لكانت علاقات هذه الشعوب اليوم قوية ومتينة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

(١) لماذا نصف الطائفية بالطائفية السياسية؟ نحن نصر على وصف الطائفية بالسياسية؛ لأننا مؤمنون بمفهومها المعروف لا علاقة لها بالدين، ولا يمارسها علماؤه، ولا الواعون من عامة المتدينين، بل يمارسها فى عالمنا سياسيون احترفوا العمل السياسى فإذا أرادوا عصبية لإسناد مواقفهم السياسية، أو موجة شعبية ليركبوها أثاروا الطائفية وامتطوها أو القبلية والعشائرية، لذلك لا تكاد تجد طائفية بين علماء الدين والمراجع بل هم سياسيون يمارسون الطائفية فى قراراتهم السياسية فى التوظيف والتعليم ومنح الفرص للمواطنين.

الذى أيّدها ضد الأتراك[١]، وبذلك استطاع أن يمرر عملية التحول أو التحويل الشكلى من الاحتلال إلى الانتداب وبموافقة حكومة عراقية شبه منتخبة لم تمثل فيها المقاومة الحقيقية وقياداتها تمثيلاً مناسبًا، بل يمكن القول بأنّها عزلت عنها عمداً[٢]. ومع ذلك فإنه من غير الممكن تجاهل تلك الحقيقة الناصعة، وهى أنّ العراق الحديث هو الابن الشرعى لثورة العشرين. وهى الثورة الأخيرة التى مثل الإسلام فيها دور القوة المحركة الأولى والأساسية لجماهير الأمة، وأثبت فيها فاعليته الحقيقيَّة فى تحريك الجماهير ودفعها باتجاه الثورة والتصدى لمقاومة الاستعمار بكل أشكاله، وإرغام البريطانيين على الخضوع والاستسلام لإرادة الأمة المجاهدة. وإذا كانت مذكرات الساسة العراقيين والمؤرخين لتلك الفترة لم تعط لهذه الثورة حقها لأسباب مختلفة فإنّ ذلك لا يقلل من شأنها وأهميتها، وكونها الأم الشرعية للعراق الحديث. وليست هذه هى المرة الأولى التى يطمس فيها المؤلفون أدواراً إسلامية فى الحرية والتحرر والاستقلال ومحاولات إعادة بناء الأمة، بل هى الظاهرة الشائعة أو المستمرة. فالإسلاميون والعلماء وقادة الفكر الإسلامى يحركون

---

(١) كان السيد النقيب من بين من أيدوا حلول بريطانيا محل الأتراك، لذلك سارع برسى كوكس إليه لتشكيل حكومة مؤقتة برئاسته، وهو يعلم أنه سيكون ستاراً للاحتلال، وأن قرار اختياره قد صدر عن وزارة المستعمرات برئاسة تشرشل وبرسى كوكس وقائد القوات البريطانية فى العراق ومس بيل السكرتيرة الشرقية لدار المندوب السامى. لمزيد من التفاصيل راجع: العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص٦٦٧.

(٢) كان هذا العزل لطمس دور المراجع والعلماء وخفض الأضواء عن الإسلام باعتباره المحرك الأساسى للجماهير، والمفجر لطاقاتها باتجاه التحرير، وإعطاء أضواء النصر لأعضاء الجمعيات السرية الذين تحالفوا مع بريطانيا ضد العثمانيين، تمهيداً لبناء دولة قومية تهمش المراجع وتحدث التغيير المطلوب.

الجماهير نحو الثورة حتى إذا أوشكت على الانتصار تصدر الصفوف أناس آخرون كأنَّهم يبرزون من باطن الغيب . أو يكونون قد أعدوا مسبقًا للعب هذه الأدوار إذا أخذنا بنظرية "المؤامرة" . ولذلك يستبعد الإسلام وتخفض الأضواء عنه وعن رجاله وجهادهم، وتعطى لحركات التحرر والتحرير صفات أخرى تتراوح بين الوطنية والإقليمية، وربما القومية والتقدمية [1]، وهذا ما قد حدث مع هذه الثورة.

المراجع والعلماء قادة المقاومة:

قد أوهمت الجمعيات السرية المعارضة للأتراك الإنكليز بأنهم سوف يستقبلون بالزهور وباقات الورد عندما يدخلون العراق، "فالشيعة" و"الأكراد" سوف يعتبرونهم محررين من سلطة الأتراك والسنة، والسنة سوف تقنعهم تلك الجمعيات المعارضة للأتراك بأن البريطانيين جاءوا لتحريرهم حسبة لوجه الرب يسوع، وعشقًا لأبناء العراق، لكن سرعان ما اكتشف الإنكليز خطأ تلك التصورات وخطأ التحليلات والمعلومات الاستخبارية التى بنوا عليها تقديرهم للموقف. ولقد بدا واضحًا للإنكليز منذ الوهلة الأولى، ومنذ بدايات حملة "ديلامين" أن جهودهم سوف تصطدم بمقاومة علماء الدين، خاصة المراجع والمجتهدين الشيعة والحوزات العلمية وبجندهم الأوفياء من أبناء العشائر الذين لا يسلس قيادهم إلا لشيوخهم والعلماء الذين يقلّدونهم، لكنهم قبل ذلك

---

(١) لذلك كان الذين أحاط فيصل الأول نفسه بهم هم رجال الثورة والعسكريون العرب والعراقيون خاصة الذين شاركوا بريطانيا فى القتال ضد الأتراك العثمانيين، وهم يعلمون أنهم بذلك يسلمون البلاد العربية، بل والعالم الإسلامى إلى بريطانيا بديلاً عن تركيا، وفى ذلك ما فيه. وهذا الذى حدث فى العراق حدث فى سائر الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

كـانوا يراهنون على اضطهـاد العـثمـانيـين الأتراك للشـيـعـة(١)، وأن ذلك الاضطهـاد قد يجعل علمـاء الشيـعة ومراجعـهم، وكذلك العـشائر تسـتقبل بريطانيا وقواتها بالورود. ولكنهم بمجرد أن صاروا مع العراقيّين وجهًا لوجه فى "الفاو" ثم "البصرة" فوجئوا بأنّ علماء الدين الشيعة، ثم السنة كانوا أول من بادر بالدعوة إلى جهاد الكفار جنبًا إلى جنب مع المسلمين من بقايا القوات العثمانية متناسين كل ضروب العنف والنفى التى مارستها السلطات العثمانية ضدهم. لقد حملت الحوزات العلمية والعلماء عبء استنفار الشعب والقبائل فى مقدمته، وحشد كل القوى المادية والمعنوية فى مقاومة الإنكليز، وشد أزر قوات العثمانيين التى كانت فى أضعف أحوالها من حيث نقصان العُدة والعدد؛ لأنّ القيادة التركية كانت تنظر إلى الجبهة العراقية على أنها جبهة ثانوية.

لقد دعا الأئمة والمراجع وسائر العلماء أبناء العراق فى بغداد والكاظمية والنجف والكوت وكربلاء وسائر الأنحاء إلى التكاتف مع الأتراك المسلمين، وشد أزرهم لدفع الكفار عن بلاد المسلمين. ولا يخفى أن العشائر فى تلك المرحلة من تاريخ العراق كانت هى القوات الضاربة والمقاتلة من أبناء العراق.

كما أفتى كبار العلماء فى مدينة "السماوة" وفى مقدمتهم السيد عبد الرزاق الحلو - رحمه الله - بتعيُّن الجهاد فريضة على الجماهير المسلمة فاستجابت الجماهير، وسارت قوافل المجاهدين من "الشامية" و "أبو صخير" والمناطق المحيطة بالسماوة، وامتدت الدعوة إلى الجهاد إلى أقصى

---

(١) كما راهن من راهن على اضطهاد صدام للعراقيين، وظنوا أنهم سوف يستقبلون بالورود فى كل مكان، فإذا بهم يواجهون بمقاومة غير متوقعة أو منتظرة؛ لأنهم لم يلاحظوا التركيب النفسى للشعب العراقى الذى احتلوا أرضه مدّعين تحريره!!.

شمال العراق فالتحقت قوات كردية سنية برئاسة الشيخ "كاكا أحمد" وما لبثت أن انضمت قوافلهم إلى إخوانهم فى "السماوة".

أما فى بغداد وضواحيها فقد كتب الشيخ "مهدى الخالصى" رسالة بعنوان: (الحسام البتار فى وجوب جهاد الكفار) وقد نشرتها جريدة: "صدى الإسلام" فى حلقات متتابعة ثم أصدر الفتوى فى وجوب إنفاق المسلمين أنفسهم وأموالهم فى الجهاد وجوبًا عينيًا حتى تزول غائلة الكفار، ومن امتنع عن بذل ماله وجب أخذه منه كرهًا.

وفى (١٩) تشرين الثانى توجهت مظاهرة انطلقت من الكاظمية نحو بغداد فاستقبلهم جمهور كبير من البغداديين فى القلعة بباب المعظم حيث ألقيت الخطب والقصائد مؤيدة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة، وكان من أبرز الخطباء آنذاك شاعرا العراق الكبيران: معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى، وكلاهما كرديان. وفى (٣٠) تشرين الثانى ١٩٢٤م تحركت الباخرة (حميدية) مقلة المجاهدين، وثلة من الفرسان العثمانيين مع السلاح والذخيرة الحربية متوجهة نحو العمارة، حيث وصلتها بعد أسبوع، وتلتها الباخرة (الموصل) تقل بقية المجاهدين وعلى رأسهم الحاج داود أبو التمن وصادق العطار والسيد عبد الكريم الحيدرى[١].

---

(١) المراجع والعلماء وشيوخ العشائر وقادة المجاهدين كان ينبغى أن تحتفظ ذاكرة الأجيال العراقية بذكر أهم سيرهم لا أمثال ميشيل عفلق ولا الياس فرح وأمثالهما من مكرسى الهزائم وبانى أوكارها - على حد تعبير هانى الفكيكى -. ومن الغريب أن يجعل البعض من هدم القبة والمبنى الذى أقيم على قبر ميشيل عفلق قضية كبيرة تناقش على الأثير فى حين أنهم لم يناقشوا دلائل إعدام شهداء العلماء والأئمة أمثال عبد العزيز البدرى وباقر الصدر والشهداء الثلاثة والستين من أسرة الحكيم، وعدم تحقيق أى هدف من الحرب المعلنة وغير المعلنة وتدمير العراق وتسليمه للاحتلال والقضاء على مئات الألوف من شباب إيران والكويت!.

لقد شارك المجاهدون من الشيعة والسنة يقودهم المراجع والعلماء إلى جانب القوات النظامية التركية. وتروى كتب التاريخ بلاءَهم الرائع فى القتال يدفعهم حرصهم على مقاتلة أعداء الدين، لقد استمرت الحرب بين المجاهدين العراقيين والإنكليز أربع سنوات كبد العراقيون العدو خلالها آلاف القتلى والجرحى والأسرى، لقد كانت القوات الإنكليزية التى استسلمت بعد حصارها فى الكوت مع قائدها (طاوزند) تربو على ثلاثة عشر ألف مقاتل إنكليزى، وإذا كان العراقيون لم يتمكنوا من دحر الإنكليز تمامًا، واحتلت بلادهم بعد ذلك، فإنّ هذه النتيجة لا تؤثر فى بيان ما نريد التأكيد عليه وهو مدى أثر الإسلام آنذاك فى تحريك الجماهير وقدرته على حشد القوى المعنوية والمادية للمسلمين، ودفعهم إلى الصمود فى وجه قوة عظمى. كما أظهرت تلك الثورة عظمة الإسلام وقدرته على تذويب الخلافات المذهبية والقضاء على الطائفية وتهميشها وجعل الخلافات المذهبية أمورًا يمكن تجاوزها ما دام الاتفاق على أسس الإسلام وقواعده الكلية قائمًا متمثلاً فى القرآن وبيانه من السنة(١).

إنّ روح الجهاد التى سرت فى العراق كله وتغلغلت فى سائر أرجائه قد امتدت إلى منطقة (عربستان) التى كان يحكمها الشيخ خزعل بن جابر من "المحيسن من قبيلة كعب" بطريقة خاصة؛ حيث كانت إمارته ترتبط سياسيّا بحكام إيران، ويعتبر أهلها بمن فيهم الشيخ خزعل من رعايا الإيرانيّين وإن كانوا جميعًا عشائر عربية، ولكنه مع ذلك كان يحتفظ بأوثق العلاقات

---

(١) يؤكد هذا أن الطائفية ليست ثمرة تدين، ولا إنتاج متدينين، بل هى إنتاج ساسة، وطلاب مناصب وعلمانيين قد لا يكون لديهم اهتمام بأى جانب من جوانب الدين بل قد تكون مواقفهم معادية له.

التجارية والاقتصادية مع بريطانيا، ولا يكاد يخرج عن آراء مندوبيها فى المحمرة والبصرة فى أىّ شأن من شئون إمارته ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة آنذاك فى منطقة الخليج، وفى فترة من الفترات فكرت بريطانيا أن تمنيه بعرش العراق، وبعد تسلم فيصل الأول حرص الشيخ خزعل على إقامة علاقات متينة مع سائر الحكام العرب[1].

الجذور التاريخية للطائفية السياسية فى العراق:

ابتلى العراق تاريخيًا بأن كان ميدانًا من أهم ميادين الصراع والحروب بين السلاچقة الأتراك فى العصور العباسية الأخيرة والبويهيين الفرس. وما أن تجاوز تلك المرحلة حتى وقع أسيرًا للغزو المغولى. وقبل أن يشفى من آثار ذلك الغزو الكبير إذا بالحروب والصراعات بين الدولتين العثمانية فى تركيا، وما أخضع لها، والصفوية فى إيران تتخذ من العراق ميدانًا من أهم ميادين القتال والصراع بينهما، فأورثه ذلك التاريخ الطويل من الصراع فيه وعلى أرضه تراثًا فى غاية التعقيد. فالسلاچقة الأتراك حين سيطروا على العراق وتحكموا فى مقاليد بغداد اضطهدوا سائر الفرق والمذاهب الإسلامية التى لا تتبنى توجههم "الماتريدى"[2] فى العقائد والحنفى الخاص فى الفقه. وقد أصاب

---

(1) تراجع آثار ثورة العشرين على الخليج والجوار العراقى فى سائر المظان التى تناولت تفاصيل هذه الثورة. وأما الشيخ خزعل وإمارته وعشائرها فتراجع مذكرات سليمان فيض (٣٧٨-٣٨٨) طبعة دار الساقى، لندن، ١٩٩٨م، ففيها معلومات مهمة عن هذه الإمارة.

(2) الماتريدية: هم أصحاب أبى منصور محمد بن محمود المعروف بالماتريدى والملقب بإمام الهدى، ولد ونشأ فى سمرقند موطن المناظرات والمجادلات فى الفقه والأصول، وكان حنفى المذهب تلقى علوم الفقه والكلام على نصر بن يحيى البلخى، وضع كتبًا كثيرة منها: كتاب تأويل القرآن، وكتاب الجدل، وكتاب الأصول من أصول الدين، وكتاب=

الأشاعرة[1] والمذاهب السنية الفقهية المغايرة لهم عنت كبير، وعرفت بغداد فى عهدهم عقوبة إعدام كتب المخالفين لمذهب الدولة حرقًا. قبل أن يمارس المغول ذلك فى إغراق كتب العلم فى نهر دجلة بعد قرنين من الزمان.

إنّ ما سُمى "بالحكم الوطنى" الذى تأسس فى ظل الاحتلال البريطانى ولمساعدة بريطانيا على حفظ الأمن فى العراق، وتوفير أرواح جنودها، قد

= التوحيد والمقالات فى علم الكلام. وحاول إثبات العقائد التى اشتمل عليها القرآن بالعقل والبراهين المنطقية، وقد اعتبرت الماتريدية أن معرفة الله تعالى مدركة الوجوب بالعقل، وأن الله تعالى منزه عن العبث؛ وأن أفعال الله تعالى أرادها لحكمة اختارها، وأن الله تعالى خالق الأشياء كلها فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق لله وحده لا شريك له.

(1) الأشاعرة: هم أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت ٣٣٠ هـ) ينسب أبو الحسن إلى أبى موسى الأشعرى، وكان على مذهب المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ على شيخهم أبى على الجبائى، وأقام على الاعتزال حتى سن الأربعين حيث جرت بينه وبين أستاذه الجبائى مناظرة اعتكف على أثرها فى بيته مدة خمسة عشر يومًا ثم خرج إلى الناس ودعاهم إلى الاجتماع فى المسجد الجامع فى البصرة ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى أنا كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة فأخرج فضائحهم. ومن آرائه أيضًا إن علم الله تعالى واحد يتعلق بجميع المعلومات المستحيل، والجائز، والواجب والعدم، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصلح من الجائزات وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، وكلامه واحد هو أمر ونهى وخبر واستخبار ووعد ووعيد. كما أثبت أن السمع والبصر لله تعالى صفتان أزليتان وأثبت أن اليدين والوجه صفات خبرية. والإيمان عند الأشعرية هو التصديق بالجنان فمن صدق بالقلب واعترف باللسان صح إيمانه، وقد انتشر المذهب الأشعرى فى العراق ثم فى مصر أيام صلاح الدين الأيوبى وكذلك فى سوريا وبلاد المغرب العربى.

سلك ذلك الحكم منذ البداية مسلكًا استبداديًا؛ لاعتماده في تدعيم سلطانه على رضا الغازى ومساندته، لا على قناعة الشعب العراقى به وخاصة المراجع وأتباعهم. كما اتبع سياسة التمييز الطائفى بتشجيع من المحتل الغازى كذلك. ومن أبرز ما لجأ إليه لتكريس التمييز الطائفى، وتحويله إلى حقيقة ثابتة ومبرّرة فى الوقت نفسه نزع الهوية العربية عن الشيعة والتشيُّع. والاستمرار فى سياسات العزل المذهبى الموروثة عن العثمانيين، والتشهير بالمذهب الشيعى ونسبته إلى الفرس، ورميه بأنّه مذهب يقوم على البدع، وأنه قد تغلغل فيه الفكر الشعوبى والفارسى، وصار السمة الغالبة عليه. ولقد أدت تلك السياسات إلى توليد قناعات خاطئة، قامت على أسس منحرفة منها أحزاب وقوى وطنية إقليمية، أو قومية شادت برامجها السياسية على قواعد مائلة خاطئة من تلك التصورات. مع أن المفترض فى تلك الفئات الإقليمية منها والقومية أنها ليبرالية فى بنائها الفكرى. وبعضها يصرح بعلمانيّته، فمن أين وكيف يجمع هؤلاء بين الطائفية المذهبية وبين الليبرالية والعلمانية؟ لكن لله فى خلقه شئون !![1].

---

(١) أن ما نقوله قد لا يعجب الكثيرين من أولئك المعجبين بالنظام الملكى الذى قام فى أعقاب ثورة العشرين؛ لأن من جاءوا بعده ارتكبوا من الأخطاء بل والجرائم ما جعلهم ينظرون إليه على أنه كان الصورة المثالية، لكن الناظر إلى ذلك النظام بشكل موضوعى، لا بد له أن يدرك أن ما جاء بعده من نظم العسكر والبعثيين والطائفيين لم يكن إلا ثمارًا مرة لغرسه، فلو طاب الغرس لطابت الثمار، ومجىء من هو أظلم لا ينبغى أن ينسى الناس دور الظالم فى مجىء من هو أظلم، ودور المنحرف فى مجىء من هو أكثر انحرافًا فذلك أمر يكاد يكون طبيعيًا. فأيلولة النظام العراقى إلى ديكتاتورية صدام لا ينبغى أن تغطى على البذور والجذور الفاسدة التى أفرزت نظامه البشع.

استقلال الحوزات والمدارس الدينية الشيعية:

مما عرف به السلاچقة الأتراك الذين هيمنوا على العراق الجمع بين ضيق الأفق والتعصب ضد المخالف إلى درجة استباحة قتله. فهم لا يؤمنون إلا بالرأى الواحد والمذهب الواحد، وحين وجدوا تلك الحريات الفكرية والمذهبية فى بغداد ساءهم ذلك، وعملوا على مصادرة تلك الحريات، ووضعوا من القيود ما لا عهد لبغداد والعراق به. وطاردوا العلماء المخالفين، وقتلوا منهم عدداً، وأحرقوا كتب المخالفين لهم باحتفالات علنية من فلاسفة ومناطقة وعلماء. وإمعانًا فى القضاء على ظاهرة "الحرية الأكاديمية" أو حرية التعلم والتعليم، فقد عمدوا إلى تأسيس مدارس لا تُدرس إلا مذهب الدولة، وما تقبله من فكر، وأوقفوا عليها الأوقاف والحبوس، وربطوا بها الوظائف. وبذلك صادروا حرية القلم لصالح سلطة السيف، وحولوا علماء الحنفية خاصة إلى موظفين وامتهنوا العتبات والأضرحة التى لها لدى الشيعة قدسيّة، ولدى بقية المسلمين احترام وتقدير(١).

هنا عمد علماء الشيعة إلى البعد عن أماكن السيطرة السلچوقية المطلقة وموظفيها فبدأوا بتأسيس مدارسهم الخاصة و "حوزاتهم العلميّة" فى النجف وفى الأماكن النائية عن العاصمة؛ وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى. وكانت بدايات بسيطة لا يصعب تمويلها بما يتوافر لهؤلاء العلماء من حقوق، وتبرعات الموسرين من مقلديهم.

---

(١) مثال على ذلك الامتهان أن مقبرة النجف قد أعطيت "باللزمة" إلى ملتزم يهودى كان المسئول عن السماح بدفن أموات المسلمين الشيعة فى المقبرة من عدم ذلك، وكان يتقاضى على ذلك أموالاً ترهق كواهل أهل المتوفى، إضافة إلى إجراءات أخرى تعد بحد ذاتها أهانة بالغة حفلت بها تلك الصفحات المطوية من تاريخ العراق.

أما فى الجانب الحنفى خاصة، والسنّى بصفة عامة فقد حاول السلاجقة تحويل المدارس والوظائف الدينية إلى مؤسسات معقدة ضخمة؛ بحيث تحتاج إلى أموال الدولة وأوقاف قادتها، وتمويل رجالها على الدوام. وقد بدأ بعضهم يختص ببعض العلماء وتلامذتهم، ويبنى لهم المدارس الفخمة والمساجد الضخمة والتكايا، ويوقف عليها الأوقاف لتستقطب الطلاب، ويتنافس على التدريس فيها المدرسون، ويقبل الطلاب على الدراسة فيها. ومنذ ذلك التاريخ والعالم والفقيه الشيعى يتمتع بالاستقلال المادى عن الدولة بحيث يستطيع أن يتمتع بشعور الاستغناء عن الحاكم، بل والاستعلاء عليه. ويحقق معنى الكلمة الشائعة فى الأوساط الفقهية: "وعلا الملوك ليحكم العلماء".

أما فى المجال السنّى فمهما علا قدر العالم فإنه لا يعدو أن يكون واحدًا من موظفى الدولة، عليها يعتمد فى رزقه، وممارسة دوره، والمحافظة على مكانته، ولذلك ساغ لبعض الناس أن يرددوا واصفين بعض أولئك العلماء بأنهم "وعاظ السلاطين والأمراء والوزراء"[1]؛ فى حين يكون أقصى ما يمكن أن يوصم به عالم شيعىّ بأنّه من "فقهاء الحيض والنفاس" تعبيرًا عن انشغاله عن القضايا الكبرى وهموم الأمة بالجانب الفقهى ذى الصبغة الفردية[2]، وهو جانب لا بد من وجود من يقوم به فى سائر الأحوال، لأنّ الأفراد يحتاجونه فى سائر حياتهم اليومية وفى كل الأحوال.

(١) لعلى الوردى كتاب حمل هذا العنوان (وعاظ السلاطين) نشر فى بغداد فى خمسينيات القرن الماضى وأعيد طبعه عدة مرات.

(٢) كان الإمام الخومينى وبعض أنصاره المقربين يطلقون على بعض من لا يولون القضايا العامة وشئون الأمة عناية واهتمامًا كافيين.

ويمكن للكاتب فى تاريخ "العلوم النقلية" أن يرصد مجموعة كبيرة من الفوارق بين حالات هذه العلوم فى الحوزات وحالاتها فى المدارس السنيّة فى العراق خاصة. رغم أن عصور الانحطاط قد أحدثت كثيراً من الآثار السلبية فى هذا النوع من الدراسات بصفة عامة، لكن الآثار السلبية فى هذه المعارف فى الجانب السنىّ كانت أشد وأنكي؛ فقد أورثت جموداً وتقليداً بدأ قبل سقوط بغداد بأيدي التتار، وما زال قائمًا. ووجود أفراد نوابغ من الفريقين بلغوا مرتبة الاجتهاد وحافظوا على القدرة على التجديد والإبداع لا يؤثر فى القاعدة العامة كثيراً، فهو بمثابة شذوذ فردى لا يخرم القاعدة. لذلك فإنّ قدرة الفقيه الشيعى على استقطاب الجماهير والاقتراب منها والإحساس بها وقيادتها لا تزال تعتبر خاصة من خواص الفقهاء الشيعة (١).

مناقشة دعوى عجمية التشيع:

لمزيد من التوكيد على الثوابت الآنفة الذكر أبادر إلى القول بأن هؤلاء الذين توهموا "عجمية التشيع" ووصفوا الشيعة بأنهم "عجم أو أعاجم" هم أميون لا يعرفون تاريخـًا ولا جغرافية ولا إلمام لهم بنشأة وتاريخ الفكر الإسلامى ومدارسه، ولا المذاهب الإسلامية وطرق ووسائل انتشارها جغرافيّا واجتماعيّا أو أنهم أصحاب غرض، وفيما يتعلق بالعراق خاصة هم متساهلون فى معرفة ماضيه وحاضره ومستقبله. ولذلك فهم فى حاجة إلى أن يدرسوا ويقرأوا ويطلعوا؛ ليفهموا حقيقة الأمور.

---

(١) تناول الأخ الشيخ صادق العبادى بيان بعض الفوارق بين الحوزات والمدارس السنية، فى دراسة خاصة نشرت فى بعض أعداد مجلة "الشهيد". وتمكن الاستفادة من كتاب "الجامعة الزيتونية" لعبد المجيد النجار. "والجامع والجامعة" لزكى الميلاد. وتراجع نتاج "مؤتمر علوم الشريعة" الذى صدر بجزءين عن المعهد العالمى للفكر الإسلامى، و"الأزهر بين الجامع والجامعة" وبعض الدراسات التى أعدت فى هذا المجال لنيل درجات جامعية.

ولذلك وددت أن أضع بين أيدى الباحثين نبذة وجيزة ومنصفة بقدر الإمكان عن «ماضى العراق وحاضره ومستقبله» : لعلها تعين فى تعميق البحوث والدراسات التى نرجو أن يكون لها دور فى إعادة بناء وتجديد فكر العراقيين، بحيث يكونون أقدر على إعادة بناء وترميم علاقاتهم، والتعاون معًا لإعادة بناء العراق الجديد سليمًا معافى من الأمراض الظاهرة والكامنة التى يمكن أن تهدد أجياله القادمة.

ولكثرة ما حوربت هذه الحقيقة فإننا نرى أنها فى حاجة دائمة لمزيد من التوكيد على عربية التشيع فى العراق، وأن بدايات انتشاره كانت بأيدى العرب والقبائل العربية. ومن الدلائل المؤكدة لهذه الحقيقة أن أبناء الصحابة وآل البيت نصحوا الحسين - رضى الله عنه وأرضاه - وأشاروا عليه بالتوجه نحو مراكز تجمعات تلك القبائل العربية، ومنهم ابن عمه عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حيث قال له: "يا ابن العم إنى أخاف عليك أهل العراق... أقم فى الحجاز فإنك سيده. وإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإنّ بها شيعة أبيك وبها حصون وشعاب.. "(1).

إنّ التشيع وكما ألمحنا وأكدنا فيما مر شأنه شأن أى توجه أو موقف نظرى يبدأ بسيطًا، ثم يتطور عبر تفاعل الناس معه. وينتشر فى بيئات دون أخرى

---

(1) راجع على سبيل المثال: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام وكذلك حوادث سنة ٨٠ هـ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ التى أرخت لتلك الفترة من ذكر لتلك الواقعة الخطيرة التى كبدت الأمة الكثير.، وقد أفردت هذه الواقعة أو المصيبة بتآليف كثيرة يصعب حصرها.

وفقًا لعوامل كثيرة. وقد استقطب التشيع فى كثير من مراحل تاريخ المسلمين معارضى الحكومات الأموية، ثم العباسية، ثم العثمانية، ثم الاحتلال الأجنبى فى العصور المتأخرة والحكومات التى أقامها المحتلون حتى شاع تصور بأن "التسنن" يكاد يكون وعاء الحكم أو حزب الحكومات. و"التشيُّع" محضن المعارضة من الناحية السياسية، ولكن من الخطأ توهم أن السياسة وحدها هى العامل الأساسى فى تكوين أى من الفريقين، وإن كانت السياسة واحدًا من العوامل الكثيرة التى شاركت فى تكوينهما، ولكن الاستغلال السياسى لذلك وتكريسه أمر لا شك فيه. والتشيع كان يمد الخيال الشعبى كلما تزايد ظلم الحاكمين وانحرافهم بأجمل صور البطولات والتضحيات لتحقيق قيم العدل والمساواة بين المسلمين، ونبذ الظلم والخروج على الظالمين، وتحقيق المقاصد الشرعية، والقيم الإسلامية، وذلك كفيل بترسيخ البعد السياسى والاجتماعى للتشيع.

والمتتبع للأدب الشيعى يجد مصداق ذلك فى كثير من جوانبه. فالكميت الأسدى وهو من شعراء العصر الأموى الأول يقول موضحًا هذا البعد:

فكيف ومن أنَّى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل

قول أيضًا:

فقل لبنى أميّة حيث حلوا ... وإن خفت المهنّد والقطيعا

أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركمو أجيعا

ويبدو الاتجاه الثورى لدى الكميت فى تمنيه أن يرى فى بنى أمية ما يتمنى لهم من بوار فى الحياة الدنيا فيقول:

تَحِلُّ دماء المسلمين لديهمو ... ويحرم طلع النخلة المتهدّلُ

فيا رب عجّل ما نؤمل فيهمو ليدفأ مقرور ويشبع مرمل [1]

فهو لا ينتظر فيهم الجزاء الأخروى ليذهبوا إلى النار ويذهب المعدمون من معارضيهم إلى الجنة، بل هو يتمنى التخلص من سلطانهم فى الدنيا ليدفأ المقرور، ويشبع الجائع المرمل.

ولقد ترك "التشيع" آثاراً مهمة فى سائر جوانب الحياة الإسلامية: فى جانب الرؤية الكلية والنماذج المعرفية وجوانب المعرفة الإسلامية والفكر الإسلامى إضافة إلى الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية.

وأهم البيئات الإسلامية التى ترك التشيُّع آثاره البارزة فى جوانب حياتها هى البيئة العراقية. قد يعود ذلك إلى وجود العتبات فيه أو لاستشهاد الأئمة، على وبنيه وكثير من ذرياتهم وشيعتهم فيه، وقد يعود ذلك إلى كونه أهم مراكز الدراسات الشيعية فى العالم، ففيه حوزات مرجعية تعد مراكز إشعاع لا غنى لأى شيعى فى العالم عن الرجوع إليها. وقد يرجع إلى وجود أكبر عدد من المراجع فى النجف وكربلاء، وقد يعود إليها كلها مجتمعة، ولكن الحقيقة هى أنّ التشيّع عربى النشأة والتطور، فمن أين ساغ لبعض الحكام العراقيين أن يصفوا الشيعة كافة بأنهم أعاجم؟ وكيف ساغ لبعضهم أن يصفوا التشيُّع بأنه مذهب أعجمى؟!! وهو عربى فى نشأته وتطوره ومبدئه ونهايته؟

الطائفية السياسية: كيف زرعت فى العراق وكيفية احتواء خطرها؟

مفهوم "الطائفية" مفهوم مشتق من جذر متحرك، فهو مأخوذ من "طاف يطوف طوافًا فهو طائف"، فالبناء اللّفظى يحمل معنى تحرك الجزء من الكل

---

(1) راجع: ديوان الكميت بن زيد الأسدى، بتحقيق محمد نبيل، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠م.

فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢]. وهو أيضًا مفهوم يشير إلى عدد قليل من البشر إذ لا يتجاوز - لغةً - الألف من الأفراد. ومن ثم فإن هذا المفهوم فى جوهره يتضمن فكرة الأقلية العددية الصغيرة المتحركة فى إطار الكل المشدودة إليه بغض النظر عن دينها أو عرقها أو لغتها. . . فهو مفهوم كمى عددى لا غير؛ لذلك ظل اللفظ يستخدم ليشير إلى كيانات مختلفة متعددة فى خصائصها، ولكن القاسم المشترك بينها هو القلة العددية، فقد أطلق على حملة المقالات أو الآراء (نسبة إلى ما كانت الأكثرية تتبناه) "طوائف" مثل طائفة المعتزلة وطائفة الأشاعرة؛ ثم لما حدثت مقالات انقسمت حولها هذه الطوائف فى داخلها، سميت بطوائف، أيضًا مثل الإمامية والزيدية ونحوها بالنسبة للشيعة، ثم انقسمت هذه بدورها إلى مجموعات سميت "طوائف" كذلك. ولم يبرز هذا المفهوم باعتباره إشكالية أو أزمة إلا فى القرنين الأخيرين خاصة، وذلك تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية فى ظرف تاريخى معين ساعد على إحداث نوع من التطابق بين الأمراض الداخلية والمؤثرات الخارجية. فالعربى تعامل مع اليهودية والمسيحية والإسلام تعامله مع اختلافات اعتقادية لا تعنى المفاصلة والعداء أو تهديد وحدة الكيان، والخروج عنه، أو محاولة الانتماء لكيان آخر خارجه. أو السعى للانفصال عنه فقط بحجة الاختلاف فى العقيدة، ومن أقدم النصوص العربية الإسلامية فى هذا المجال "وثيقة المدينة"(١) التى لا تزال بحاجة إلى دراسات متعمقة من جميع الجوانب، وفى ضوء تخصصات مختلفة.

وقد كانت الطائفية أبرز الانقسامات التى شهدها التطور التاريخى العربى

---

(١) وثيقة المدينة: يمكن مراجعتها فى كتاب "الوثائق السياسية فى العهد النبوى" لمحمد حميد الله، وكتاب "المجتمع المدنى" لأكرم ضياء العمرى.

إلى ما قبل الحملة الفرنسية على مصر والشام. وكما بين لنا التاريخ أنه لم تكن تلك الانقسامات عناصر تهديد لوحدة الكيان العربى أو مبرراً للتمايز والانفصال والتمزق بين أبنائه، أو وسيلة للاختراق من قبل الآخر، فالمسيحيون العرب لم يعلنوا - على سبيل المثال - مناصرة الصليبيين فى حملاتهم على البلاد العربية، ولم يتحالفوا معهم حتى فى لحظات انكسار المسلمين. ثم مزج مفهوم "الطائفية" ذات المكون العددى مع مفاهيم أخرى ذات مضمون فكرى أو فلسفى أو عرقى أو مذهبى أو دينى فتحول إلى ما يشبه "المصدر الصناعى" فى لغتنا ليفيد معنى الفاعلية الخاصة بالأقلية العددية، والمنفصلة عن فاعلية الأمة، وبذلك أصبح مفهوم "الطائفة" يستخدم بديلاً لمفاهيم "الملة والعرق والدين" التى كانت سائدة قبل ذلك. واختلطت هذه المفاهيم جميعًا فى بيئة متأزمة فكريّا وسياسيّا، مأزومة ثقافيّا فأنتجت مفهوم "الطائفية" باعتباره تعبيراً عن حالة أزمة تعيشها مجتمعات عربية مثل لبنان حيث تحول الجزء إلى كل والبعض إلى كيان مستقل، وأصبحت الطائفية مذهبًا وأيديولوچيّة وهُوِيَّة حلت محل الهويات الأخرى والانتماءات الأعلى، بل وبدأت تتعالى عليها، وقد تبدى الاستعداد للتقاطع معها وأخذ موقعها، وهذا ما يهدد وحدة العراق اليوم وينذر بإنهاء وجوده.

إن "الطائفية" السياسية قد تم تكريسها - كما تقدم - من ساسة ليس لديهم التزام إسلامى، أو مذهبى، إذ إن "العلمانى" سواء أخذ من الدين موقفًا محايداً أو معاديًا لا يمكن أن يكون له موقف مذهبى حقيقى؛ إذ المذهب فرع عن التدين، ومن فقد الأصل فقد الفرع بالضرورة، بل هو موقف انتهازى للحصول على "عصبيَّة" كما يسميها ابن خلدون أو شعبية كما يطلق عليها فى

عصرنا هذا؛ ليكون الانتهازيّ السياسيّ قادراً على الوصول إلى السلطة.

إن مجرد الانتماء إلى طائفة أو فرقة أو مذهب لا يجعل الإنسان المنتمى إلى تلك الطائفة طائفيّا، كما لا يجعله طائفيّا عملهُ لتحسين أوضاع طائفته أو المنطقة التي يعيشون فيها دون إضرار بحقوق الآخرين. ولكن الطائفيّ هو الذي يرفض الطوائف الأخرى، ويغمطها حقوقها، أو يُكسب طائفته تلك الحقوق التي لغيرها تعاليّا عليها، أو تجاهلاً لها، وتعصُّبًا ضدها.

ولقد أدرك المحتلون نقطة الضعف هذه في "السياسيّين العراقيّين" وأحسنوا استخدامها واللعب عليها. فالبريطانيّون حين رأوا أن ثورة العشرين التي فرضت عليهم الهزيمة والتخلي عن أحلامهم في العراق اندلعت في المناطق الشيعية أولاً، ومنها عمت العراق كلّه وقادها علماء الدين والمراجع الشيعية. قرروا الاعتماد في حكم العراق على "السنة العرب" فابتلعوا الطعم بقيادة وزعامة السيد عبد الرحمن النقيب، ومجموعة من رجال السلطة الذين جاء بعضهم من الجمعيات السرية التي كانت تتعاون مع بريطانيا ضد الأتراك العثمانيين. وحين يبتلى بلد برجال سلطة يستندون في وجودهم، واستمداد نفوذهم إلى الأجنبي؛ فإنهم يمنحون ولاءهم واهتمامهم إلى أولئك الذين مكّنوهم من السلطة، لا إلى شعوبهم. وهنا تبدأ زاوية اتصالهم بشعوبهم بالانفراج التدرجي إلى أن يحدث الفصام.

إنّ أخطر ما يبتلى به شعب أن يتحول حكامه من رجال دولة إلى رجال طوائف أو أحزاب أو قبائل، فالمصير الذي ينتظر ذلك الكيان هو التفكك لا محالة، ولن يكون بعد ذلك رابح إلاّ أعداء ذلك الكيان، المستفيدون من تمزيقه.

إنّ الناظر في الأوضاع العراقية الحالية يرى تشابهًا كبيرًا بينها وبين ما جرى

فى مرحلة التأسيس، ويلحظ أنّ الاختلاف فى الممثلين فقط لا فى الأدوار التى تجرى إعادتها بدقة عجيبة. والعراقيون ليس أمامهم خيار، فإما أنْ يتحلَّوا بالوعى السياسىّ الصادق، ويتخلَّصوا من الأفكار المريضة التى أعادتهم للاحتلال بعد ثلاثة وثمانين عامًا. وإما أن تستمر حالة الفعل ورد الفعل، وتبادل الأدوار بين الشيعة والسنة والعرب والأكراد والمحتلين القدامى والجدد.

لقد كنت أتابع مظاهرات طلاب المدارس الدينيّة السنّة بعد سقوط بغداد الأخير، ثم المسيرة الكبرى التى اشترك فيها أبناء الكاظميّة والأعظميَّة معًا وكلّهم كانوا يهتفون بصوت واحد ملىء بنبرة الإخلاص "إخوان سنّة وشيعة، هذا البلد ما نبيعه". وكلما سمعت ذلك استغرقت فى البكاء وقلت فى نفسى: هكذا كان آباؤنا وأجدادنا يفعلون فى العقد الثانى من القرن الماضى، تأتى مظاهرات الشيعة من الكاظميّة لتتّحد بمظاهرات السنَّة فى جامع الحيدرخانة فى بغداد إلى أن فرقهم الطائفيّون السياسيُّون، وأنسوهم وحدتهم، وبدَّدوا طاقاتهم فى صراعات طائفيّة انتهت بالبلاد إلى الحالة المزرية التى تعيشها اليوم، وهى الحالة التى قد تحتاج البلاد إلى عقود قادمة عديدة لتتخلص من آثارها السلبيّة. وما هى بفاعلة إلاّ إذا تخلصنا من تلك البذور الخطيرة.

لذلك فإنّ اتفاق كلمة أبناء العراق على أن التنوع بكل أنواعه الدينيّة والعرقيّة واللسانية والمذهبيّة هو الثابت الثالث من ثوابت هذا البلد، فينبغى أن تتفق كلمة الجميع على تحويله إلى إمكانيَّة لا إلى معوّق، وأمر إيجابىّ لا سلبىّ، ووضع أسس وتقاليد يتّفق الجميع عليها وعلى احترامها، وفى مقدمتها عدم قبول التفرقة والطائفيّة من أى وعاء خرجا، وعدم السماح لأحد بتحويلها إلى طائفيّة سياسيّة وأيديولوچيّة حكم. لا بد من تعليم الأجيال وتدريبها على

أن المطلوب ليس مجرد قبول المخالف المذهبى أو الدينى أو العرقى، بل لا بد من اعتباره مصدر قوّة بحيث لو لم يكن موجودًا لوجب إيجاده. وهناك الكثير من الوسائل والأدوات المعاصرة التى يمكن أن تساعد على ذلك وتجعله حقيقة واقعة.

والاحتلال سواء كان قديمًا أو حديثًا لا يمكن أن ينظر إليه على أنَّه فرصة لتحقيق مكاسب سياسية، طائفيّة أو عرقيّة، كما حدث فى أعقاب ثورة العشرين ويراد تكراره اليوم أو إعادة إنتاجه بشكل آخر، بل هو فرصة لمراجعة النفس، ورصد الأخطاء والسلبيّات وأخذ الدروس والعبر؛ لكيلا نستمر فى تكرار أخطائنا، ويأكل الآباء الحصرم فتضرس أسنان الأبناء والأحفاد.

* * *

الثابت الرابع
ضرورة توفير كل أسباب التداخل بين أبناء الشعب

أما الثابت الرابع فهو نتيجة لازمة لما سبقه : فالتداخل بين فئات هذا الشعب بالطرق العفوية ذات الصبغة الفردية لم يعد كافيًا فلا بد من العمل المنظم الجماعى لتحقيق التداخل بأنواعه المختلفة بحيث يتبناه الجميع، وتوضع له البرامج المدروسة ويشيع الوعى عليه بأنه يصبح ضرورة لا بد منها، وكذلك العمل على تيسير سبل معرفة بعضهم ببعض، وإقامة شبكات العلاقات بكل مستوياتها بينهم، فذلك سوف يوجد العراقىّ الذى فيه من كل ألوان الطيف، ومن كل العناصر المكوّنة للمجتمع نصيب، ولا بد من توظيف وسائل وقنوات التربية والتعليم والإعلام والمواصلات لتوفير هذه الغاية وتحقيق التداخل المطلوب ونبذ العزلة بين الفصائل المكونة لهذا الشعب الذى طال ليله[١].

(١) إن هناك إمكانًا كبيراً لإيجاد تداخل بين العناصر المكونة للشعب العراقى من عرب وأكراد وتركمان وشيعة وسنة ومن إليهم أكبر بكثير من التداخل الحاصل الآن، بحيث يعرف الناس بعضهم بعضًا، وتبنى بينهم روابط مصاهرة، و أواصر قربى، ومصالح مشتركة، وحين يتخذ قادة البلد وعقلاؤه من ذلك هدفًا فإن عليهم أن يضعوا له الاستراتيچية اللازمة والوسائل الفعّالة لتحقيقه، ورسم سياسات أخرى تسهل هذا التداخل وتشجع المواطنين على تحقيقه وبلوغه بوسائل ودوافع ذاتية تصنعها الروابط المشتركة وشبكات الاتصال والمصالح وما إليها، فذلك أعمق أثرًا من تلك السياسات الخرقاء العنصرية والطائفية التى اعتمدها "صدام" وأمثاله فى نقل قبائل عربية إلى المناطق الكردية بعد تهجير أهلها، وتدمير علاقاتها، فهذه السياسات الخرقاء قد زادت الطين بلة، والمرض علة، فلا بد من تجاوزها بسلام.

الثابت الخامس
الـوحـدة الوطـنـية

إن مـا يجـرى - فى الوقت الحـاضر من اهتمـام كل فـصيل بالقـضايا التى تخص من ينتمى إليهم طائفيًا، أو قوميًا أمر لا يبشر بأن العراقيين قد استوعبوا دروس التجارب المرة المتقدمة. والممارسات السياسية الحالية لم تستطع أن تنظر للعـراق فى كليتـه، ولا للعراقـيين على أنهم شعب واحد، والشيعى عندما ينطلق من منطلق معين، ومثله أخوه السنى والتركمانى والكردى، فإن ذلك يؤدى إلى تكريس الفـرقـة والتـمـزق. فـيمـا لـم يتـعـود المثقـفـون العـراقـيـون والمنشـغلون بالعـمل العـام على الخروج على تقـاليـد "الطائفـيـة السيـاسيـة" والعنصرية السياسية فقد تتضاعف الخسائر التى ترتبت على سياسات العقود الماضية المرفوضة التى جلبت الكوارث على الجميع، وأدت إلى إعادة البلاد إلى الاحـتـلال من جـديد. ولذلك فـلابد من اجـتـمـاع الكلمـة على "وحـدة وطنية" صلبة. والإسراع بإعادة تحديد "الهوية العراقية" بدقة بحيث يغلق الطريق أمـام دعـاة الفـرقة والتـمـزق وتكريسـهـا بالطائفية والعنصرية والحزبية العشائرية، وما إليها من عوامل التمزق.

وهذه التوجهات لابد أن تتضافر الجهود على إيجادها فى الأجيال العراقية الطالعة فى كل مؤسسات المجتمع، وسائر مؤسسات بناء الرأى وإنتاج الأفكار بما فى ذلك دور العبادة، والبرامج الثقافية للأحزاب السياسية، وذلك لبناء حس وطنى مشترك ينفر عقليًا ونفسيًا من كل تصرف مفرق أو معل للانتماءات الصغرى الفرعية الخاصة على الانتماء المشترك.

الخاتمة

تلك - فى نظرى المتواضع - هى أهم الثوابت التى تحتاج منا جميعًا إلى المزيد من البحث والتأصيل والبلورة، والتى نحتاج إلى إعادة بناء الوعى عليها مع ضرورة التنبه إلى أنّ كل ثابت من هذه الثوابت إذا لم يأخذ نصيبه من التوضيح والبلورة والدراسة وتدرك وسائله وآليات بنائه وتثبيته فى العقول والنفوس فإنه قد يحمل آثاراً جانبية قد تودى بفوائده وتقضى عليها.

أما المتغيِّرات فهى كثيرة [(١)]، ومجال الاجتهاد فيها واسع ولن يحمل الاختلاف فى شىء منها خطراً إذا سلمت الثوابت ووقع الإجماع العراقىّ عليها.

قد حاولت - فيما تقدم - أن أسلط بعض الضوء على حقيقة اعتبرتها قد غيبت إلى حد كبير، ولعلى بما ذكرت قد أنصفت قادة وجند ثورة العشرين المجيدة التى نُفِيَ أحد أبرز شيوخها الإمام مهدى الخالصى - تغمده الله برحمته - من الحاكمين بحجة كونه أجنبيّا وهو العراقى العربى الأصيل فنفاه عبد المحسن

---

(١) المتغيرات من أوضاع اقتصادية، وتنقل وإيجاد فرص ونسب سكان. كل تلك الأمور ليس من الصعب التفاهم عليها، إذا اتفق على الثوابت وحصلت القناعة بها وتوافر حسن النية وسلامة الطوية.

السعدون إلى الهند، ثم نفى إلى جدة وإيران [1]، وإذا كان السعدون قد صار رئيساً للوزراء فى العراق فبفضل جهاد الخالصى وأمثاله بلغ ما بلغ. وإلا فإنه لم يولد بهذه الصفة. وقد حاول الشيخ خزعل استضافة الخالصى فرفض الملك فيصل.

كذلك قد ألمحت إلى بذور الطائفية والعنصرية، وكيف غرست فى عراقنا العزيز، وقد نبهت إلى ما أصاب الإخوة الأكراد من حيف. ولم أرد بذلك إنصاف هذين الفصيلين المهمين جدّامن فصائل شعبنا، فذلك قد يحتاج إلى كتب، بل أردت أن أنبه إلى أن التاريخ يشهد على الناس فيما يوقعون فيه ولو بعد حين.

إن الذى يحدث الآن فى بلاد الرافدين هو تكرار فى أحداثه وفلسفته، وعناصر تكوينه لما حدث بعد ثورة العشرين، ولكن تغير أصحاب الأدوار فينبغى ألا تتكرر الأخطاء. فلا النقيب ومن جاء بعده من بناة "الطائفية

(١) انظر قضية نفي الإمام الخالصي ومخاطبة الشيخ خزعل (أمير المحمرّة) للملك فيصل باستضافته في الإمارة ورفض الأخير. راجع في ذلك: مذكرات سليمان فيض، مرجع سابق. ولقد كان العلماء الكبار الذين يمارسون دور المعارضة منذ عهد الدولة الأموية كثيراً ما كانوا يلجأون إلى "خراسان" والمناطق المجاورة لها ابتعاداً عن مضايقات وجود السلطان. وكثيرون من السادة والأشراف المعارضين كانوا يعمدون إلى حمل نسب أو ألقاب ترتبط بأماكن إقامتهم نحو الشهرستاني والقزويني والخوئي إمعاناً في التكتم، ونأياً عن المضايقات. وكان المؤرخ الكبير "ناجي معروف" قد شرع في إنتاج موسوعة "علماء العرب" الذين حملوا ألقاباً أعجمية أصدر منها قبل وفاته أربعة مجلدات، ولم يتصل العمل بها، والأمر يتعلق ببيان الواقع لا بالتعصب بقبيل على قبيل.

السياسية " أنهوا "الوجود الشيعى " فى العراق، ولا "الحقيقة الكردية " فيه. ولن يكون فى مقدور الحزبين الكرديين أن ينهيا "عربية العراق " ولن يكون فى مقدور الشيعة أن ينهوا الوجود السنى فيه ولا العكس يمكن أن يحدث، ومن هنا فإننا نرجو ألا تتكرر الأخطاء وتواجه "الطائفية " بطائفية والعنصرية بعنصرية مغايرة فلن يبنى ذلك وطنًا، ولن يحقق استقراراً، ولن يحرر الإرادة المستلبة.

ولذلك فإن شيعة العراق وسنته، وعرب العراق وأكراده، والقوميات والطوائف الأخرى فى حاجة إلى أن يدركوا جميعًا هذه الحقائق البديهية، وأن يخرجوا بفئاتهم كلها بميثاق وطنى تحدد فيه الثوابت والمتغيرات. فتحفظ الثوابت بتعاون الجميع وتفاهمهم وبميثاق شرف لا يعطى فرصة لأحد أن يتلاعب بشىء من تلك الثوابت، وأن يتعلم الجميع كيف يتعاونون على تحقيق المشترك، وكيف يحترمون خصوصيات إخوانهم ويدافعون عنها كما لو أنها كانت خصوصياتهم هم.

إن إعادة بناء منظومات التربية والتعليم والإعلام والثقافة بحيث تنتج نموذجًا للإنسان العراقى المطلوب هى التى سوف تجنب الأجيال العراقية القادمة ما وقعت فيه أجيال ما بعد ثورة العشرين، إن شاء الله.

وأخيراً فإن "لعبة الأمم " لعبة خطيرة، ولقد جازف العراقيون الذين حاولوا الاصطياد بالأسد، فالأسد لم يتعود أن يمثل دور "كلب الصيد " . إن الأسد يصطاد حين ينطلق للصيد لنفسه ويأكل من فريسته أطايبها، ثم يترك ما بقى منها متفضلاً لبقية حيوانات الغاب من ضباع وكواسر.

ولقد صدق أبو الطيب المتنبى فى قوله :

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده   تصيده الضرغام فيمن تصيدا

والحر تكفيه الإشارة والعراقيون يعرفون كيف "يقرأون الممحى" . وإعادة بناء العراق تتوقف على تلاحم أبنائه كافة، ووحدة فصائله كلها . ونبذ الفرقة والطائفية ودعاتها .

نسأله - تعالى - أن يلهم العراقيين كافة أمر رشد يمكنهم من رؤية الحق حقًا والباطل باطلاً، ويعينهم على إعادة بناء هذا البلد العزيز . إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

***

رقم الإيداع: ١٤٩٦٩ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977- 09-1117-8